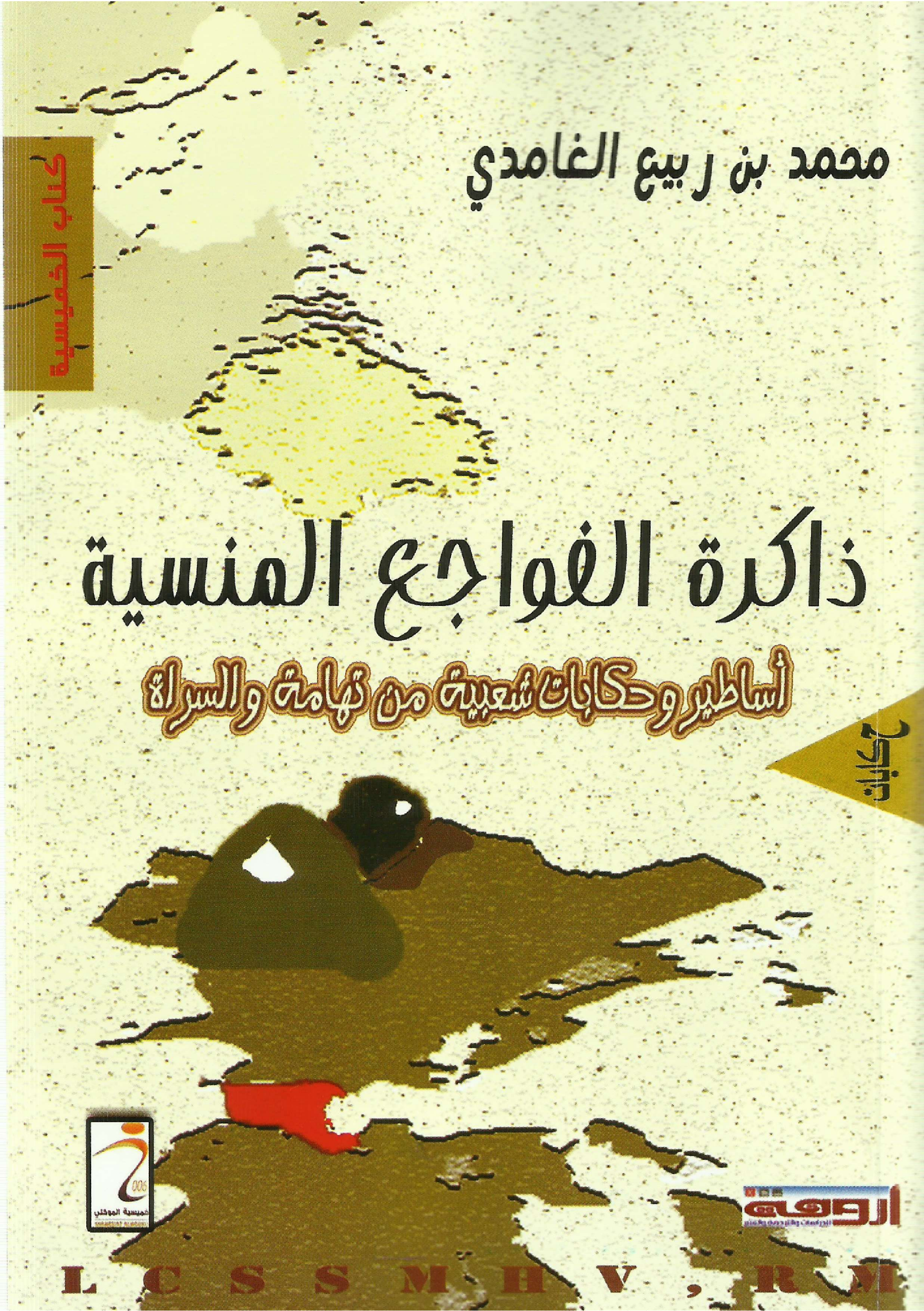

كتاب الخميسية
محمد بن ربيع الغامدي
ذاكرة الفواجع المنسية
أساطير وحكايات شعبية من تهامة والسراة
حكايات
خميسية الموشلي
LCSSMHV,RM

مؤسسة **أروقة** للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة - ش الشيخ معروف من شارع
شمبليون عمارة ج-وسط البلد
تليفون: 20225743534+
البريد الالكترونى: arweqah@arweqah.com
arweqah@hotmail.com
الموقع الالكترونى: www.arweqah.com
رقم الايداع:
الترقيم الدولى:

الطبعة الاولى
2012





محمد بن ربيع الغامدي

ذاكرة الفواجع المنسيّة

أساطير وحكايات شعبية من تهامة والسراة

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي مؤسسة أروقة وتوجهها بل يعبر عن رأي المؤلف وتوجهه

الإهداء

إلى مدينة صبيا

المدينة التي أهدت لنا

خميسية الموكلي

مقدمة

التقينا، صديقي النبيل سعد بن حمدان الغامدي (الأستاذ الدكتور حاليا) وأنا، حول الإعجاب بالأمثال الشعبية التي كنا نتلقاها من أفواه آبائنا عندما يجمعنا دكان أبي في مدينة الطائف، ثم تطور إعجابنا بالأمثال إلى انبهار مع ارتفاع حصيلتنا من الأمثال، ولقد بقي إعجابنا وانبهارنا بالأمثال الشعبية حتى بعد أن علمنا أن والدي ووالد صديقي سعد يقدمان لنا الأمثال مفصّحة .

كأنا ممن أوتينا نصيبا من العلم، وكأنا يعتقدان أن تفصيح تلك الأمثال العامية من شأنه أن يقرب فهمها للآخرين من غير أبناء قريتنا، ولم يكن أمامي وأمام أخي سعد بن حمدان إلا أن نتخلص من كل حصيلتنا من الأمثال، وأن نغير منهجنا في جمعها إلى منهج أكثر تلقائية ، لا نطلبهم أمثالا ولكن نجلس مجالسهم وعندما يخرج المثل عفويا من فم أي واحد منهم نبادر إلى تدوينه، وهكذا اقتربنا أكثر.

تدوين الأمثال كان سهلا، أما الحكايات فكنا نستمع إليها بشغف دون أن ندون منها شيئا، كأنت مهيبة وكان لرواتها ذات الهيبة التي تجلل حكاياتهم، وكانوا جميعا من كبار السن المولعين بترديد الحكاية الواحدة عدة مرات ، وربما يتخصص الواحد منهم في حكاية بعينها .

أنتقلت في عام ١٣٩٦هـ من الطائف إلى الباحة، وقد كأنت الباحة في تلك السنوات ريفا حقيقيا، كأنت الأمثال العامية والحكايات والأشعار الشعبية تمشي معنا جنبا إلى جنب، في المساريب، وفي المجالس، وفي الحقول المسقوية و العثرية، في المرعى والمفلى، وحتى في العمل ، وفي المسجد أيضا كنت تجد رائحة القرية عابقة في محرابه ومنبره ، وفي عزْوَرَته وتحت ظُلَّته .

وفي الفترة ذاتها كان أبي معي، وكان رجلا مخضرما في كل شيء، فهو يحفظ القرآن الكريم، وهو أيضا دائرة معارف شعبية تمشي على قدمين، عاش حقبة في السراة وحقبة أخرى في تمهمة ، وعاش حقبة من عمره في بلاد زهران ومثلها في بلاد غامد.

وكأنت قريتي حافلة برجالها الذين تقدمت بهم السن فزادتهم حكمة وإدراكا، وزادتهم تواضعا فما كان أحب للواحد منهم من سؤال تسأله فيجد إجابته في أضابير تجاربيه، كانوا هم جلسائي معظم الوقت، ورفاقي كل خميس، عندما أحملهم معي في سيارتي الداتسون فنأخذ طريقنا سويا إلى سوق الباحة الأسبوعي، نتبضع منه حاجاتنا.

في العام الثاني من أعوامي في منطقة الباحة، كأنت إدارة تعليم الباحة قد قررت لي محاضرة حول الموروث الشعبي وطرائق تنفيذه في المسرح المدرسي ضمن المحاضرات الأساسية للدورة السنوية التي كأنت تقيمها لصقل المشرفين على المسرح المدرسي في مدارس منطقة الباحة .

تلك المحاضرة قد منحتني فرصة أفضل لمراقبة الموروث الشعبي ورصده وتدوينه وتصنيفه، جعلت لي موقعا أشمل وأدق، فتعرفت خلالها على جوانب أخرى للموروث الشعبي، وعرفت أيضا وسائل لم أكن أعرفها في حفظ الموروث وتوثيقه .

تكونت عندي تبعا لذلك مكتبتان، الأولى تضم الكتب التي تبحث في تاريخ الباحة وموروثاتها، أو في الموروث الشعبي بصفة عامة ونظرياته ومناهج دراسته ووسائل توثيقه، والثانية تضم أوعية أحفظ فيها كل ما وقع تحت يدي من نصوص الموروث الشعبي في الباحة، من مدونات أو تسجيلات أو

تصاوير، وما هذه الحكايات التي أقدمها هنا إلا بعض ما حفظته أوعيتي تلك .

محمد بن ربيع الغامدي

الباحة – قرية الحبشي

حكايات الأماكن

جبل قاف

كان جبل قاف يشكل اليابسة كلها ،وبحر الظلمات المحيط بالجبل يشكل الماء كله، وكان في قمة الجبل قوما من أهل الصلاح والتقوى يحكمهم ملك صالح هو الملك فيفا، وقد من الله عليهم بمكرمتين، جعل لهم بحيرة عذبة في قمة الجبل لا ينضب ماؤها وجعل لها مصارف تروي الناس والبهائم في مختلف سفوح الجبل ثم ينصرف الزائد منها إلى البحر ليروي كائنات البحر، وجعل لهم أيضا فرجة في السماء فلا حائل بينهم وبين ربهم يدعونه ويتعبدونه أناء الليل وأطراف النهار وكان عليهم في مقابل هذا ألا يمنعوا الماء وألا يعترضوا طريقه ، وان يكون دعاءهم لله دعاء خير لا دعاء شر، فلا يقال مثلا : اللهم اصرف نعمتك عن فلان ، ولكن يقال : اللهم أسبغ نعمتك على فلان.

عشق أهل الجبل قرص الشمس التي سموها طيفه، القرص الذي يبث فيهم الدفء ويمنحهم الحياة التي تجري في عروقهم وفي عروق حيوأناتهم ونباتاتهم، فسموا كل مدينة باسم الشمس كل جهة بحسب لسانها ، اثيوبيا ، جيبوتي ، سبأ، صبيا ، ضبا ، الطائف ، طيبه ، الظبية ، وكلها تشير إلى طيفه.

أما أهل المصارف فقد وجدوا في الشمس عدوا لدودا فأراضيهم المنخفضة ترتفع حرارتها حتى لا تطاق كلما عبرت طيفه فوق رؤوسهم لكنهم عشقوا القمر الذي سموه : المقه ، الهادئ الجميل الذي يضيء ليإليهم ويحرك مكامن الشجي في نفوسهم، فسمّوا كل مدينة لهم باسمه ولكن على اختلاف لهجاتهم : مقاديشو ، مخا ، المخواه، مقنا ، القدس.

ومع توالي الأيام والأسابيع، وتتابع الشهور والسنين ، حاد أهل جبل قاف عن الشروط جميعا ، فأنتشر بينهم دعاء الشر، وعمدوا إلى إغلاق

مصارف البحيرة أن يجد ماؤها طريقه إلى البحر سربا، فماتت كائنات البحر، وشاعت الكراهية بين الناس، وسادت الضغائن، وتحولت محبتهم للشمس والقمر إلى عبادة.

لقد تعب كثيرا ملكهم الصالح فيفا ففوض أمره إلى الله، ولما بدأت تظهر بوادر الخراب على الجبل عمدت الملائكة إلى نقل فيفا وعائلته والأتقياء معه إلى مكان أمين ، فتخيرت الملائكة مكأنا تضع فيه فيفا وعائلته والمؤمنين معه، والراغبين في حياة بلا ضغائن.

تهدم الجبل بعد ذلك وتشظى إلى جبال كثيرة، بينما دكت بعض أجزائه فتخللها الماء ، وغارت أجزاء أخرى فلم يعد لها أي وجود ، وخرجت ألسنة النار من عدن حتى عفار فبنوا حولها سورا يشهد بالفجيعة، وجعلوا للسور بابا سموه باب الجحيم .

سكنت الجبال والوهاد ، وهدأت الغضبة ، فاستقر كل موضع على ما استقر عليه ، ونظروا فوجدوا مكان الملك قد غار كثيرا وانخفض وامتلأ بالقيزان (جمع قوز) فكان لا بد من تشييد مكان عال يناسب ما كان فيه الملك الصالح من خضرة ونعيم .

أخذوا من كل قوز نصفه، فبنوا جبلا عظيما شاهق الارتفاع ، وعندما اكتمل البناء مطاولا عنان السماء ، عمدوا إلى بناء حدائق تطوف بالجبل، من أسفله إلى أعلاه ، فطفقوا يتخيرون من شجر الدنيا ، ما زكى منه وطاب ، وما تمتلئ منه العين ويسر به الفؤاد .

ولما كأنت أغلب تلك النباتات والأشجار تجلب من وراء البحار، فقد بنوا جزيرة جميلة في عرض الماء، سموها جزيرة فرسان، لتكون تكون الجزيرة

الجميلة مستراحا للملائكة البناة في غدوهم وفي رواحهم، وسموها جزيرة الملائكة.

ثم سيق العصاة المذنبين بعدئذ إلى باب الجحيم ، فجعلوا يبكون ويبكون، كلما طلعت شمس وكلما بزغ قمر، وكأنت دموعهم تسيل وتسيل كأنها الأنهار، حتى انطفأت بفعل دموعهم النار، انطفأت النار لكن البكاء لم يتوقف فسمي الباب : باب المندب .

جبال الثور

جعل الله للناس مهادا طيبة أسكنهم فيها ، كأنت سهلا ممتدا من بلاد الترك حتى بلاد الصومال، وبث فيها الخلق من حمر وبيض وخضر، ورزقهم من الثمرات ، وجعل بلادهم وافرة الخير، غزيرة الماء ، وكان الذي في بلاد الترك يرى الذي في بلاد الصومال رغم المسافة ، بسبب شدة الاستواء.

دارت عجلة الزمان ، فنسي الناس ما أنعم الله به عليهم، فأول شيء فعلوه تنابزوا بالألقاب ، ثم تحاسدوا على الأرض، ثم على المال ، حتى ضعفت في نفوسهم قيمة الإنسان ، وأهملت موازين العدل فتطاول الأقوياء على الضعفاء ، وخنس الحق فاستبد الطغاة وعم الطغيان .

صم الناس آذانهم عن كل دعوة فيها الخير لهم ، وتولوا كبرهم فعاقبهم الله بالزلازل، زلازل شديدة مدمرة اجتاحت السهل بكامله، فتهدم منه ما تهدم ، وغمر الماء ما غمر، جعلت بعض ذلك السهل مرتفعا وجعلت بعضه منخفضا.

فأما شرقي السهل فقد غاض ماؤه واحترق نباته ، وأما أوسطه فقد وعر سطحه وتجرف مدره ، وأما غربه فقد زاد حره وكثر ملحه ، وتشتت الناس فاختلط الأحمر بالأبيض بالأخضر ، وتكسرت الألسن فاختلفت اللغات واللهجات ، واغترب الناس وكانوا قبلها في متعة وإيناس .

بدأ الناس أول ما بدأوا في البحث عن الماء، فكانوا إذا وجدوا ماء قالوا : ته ماء ، أو شيء ما ، أو يئ ماين ، حسب تكسّر ألسنتهم ، فعرفت أماكن الماء بالشام عند من قال : شيء ما ، وتمهمة عند من قال تِه ماء ، واليمن، عند من قال: يئ ماين.

وجد الناس الماء ، لكن السهل الذي كان لهم لم يعد كما كان ، أصبح السهل أرضا وعرة صعبة تستعصي على الزراعة ، فلجأوا إلى الله، وعاد الناس إلى عبادة الله فاستغفروه وسبحوا باسمه تائبين منيبين .

سخر الله لهم الثور ليثير الأرض الوعرة ، فكان أمرا عجيبا مالهم به سابقة ، ولذلك سميت تلك الجبال الجديدة الوعرة باسم: جبال الثور ، فما رؤي الثور في غيرها قبل ذلك ، وتناقلت الألسن الاسم مع تعاقب الأيام ، وتحرف من مكان إلى مكان ، فهو الطور تارة ، والشراة تارة أخرى، والسراة أحيأنا .

جبل نصران

قبل أن يستقر جبل شدا في مكانه من أرض تهامة كان جبلا سرويا مجاورا لجبل حزنه، غير أنه رحل طوعا واختيارا إلى تهامة غير بعيد عن حزنه، لكن قلب جبل حزنه قد انشطر حزنا على رحيل الجار الطيب فانفصلت منه القاره ولحقت بجبل شدا.

سكن طائر النسر العملاق نصران (أبو حويرث) قمة جبل شدا، ونسران جد نسور الأرض أجمعين، وقد سمي شدا بجبل نسران، لما للنسر من هيبة على سائر الطيور، بل وعلى سائر الكائنات، فهو قوي البنية، حاد البصر، عظيم الانقضاض.

ومع ما كانت له من قوة ومن مهابة إلا أنه كان دائم الحزن، فقد كان يفقد ذريته باستمرار، يطير الواحد منهم من على الجبل ثم لا يعود، حيث لا يستطيع تمييز الجبل من عل فيضيع منه الجبل فلا يعود.

بقي نسران مهموما محزونا، فهو يرى انقراضه يقترب أكثر مع كل ولد من أولاده يترك الجبل ثم لا يعود إليه، وفي يوم وبينما كان يحلق بجانب نجم الدبران استوقفه النجم وطلب مساعدته.

كان الدبران يحب الثريا ويرغب أن ينهي قصة حبه لها بالزواج، لكن الثريا قد طلبت عجلا من عجول تهامة مهرا لها، والدبران رأى في نسران خير صديق في استطاعته جلب ذلك العجل.

وافق نسران لكنه طلب المساعدة ووعد الدبران بجلب ما أراد، لكنه أيضا فاتح الدبران في مسألة تقلقه كثيرا، وهي مسألة أبنائه الذين إذا ابتعدوا عن شدا ضاعوا، لعدم قدرتهم على تمييز شدا من ارتفاعات عالية.

فكر الدبران طويلا ثم قال : أنا أساعدك ، سأعطيك مروة بيضاء كبيرة ،خذها ثم ضعها على قمة شدا فتصبح دليلا يهتدي به أبناؤك ، المروة هي ساخنة الان في فؤادي ، سأخرجها وأبردها ريثما تعود ومعك العجل فتعطيني العجل وتأخذ المروة .

حام نسران على تمهمة حتى رأى في شعب من شعابها عجلا بريا سمينا ، فحلق وناور ، ثم غار وارتفع ، ثم هوى نحوه فالتقطه كأنه قشة من عشب ، ثم طار به إلى عنان السماء ، وتوجه به إلى حيث ينتظره الدبران .

فرح الدبران بالعجل فرحا شديدا ، ثم استلمه من يد نسران الوفيّ، فوجده سمينا أحمر اللون أكحل العين ، لم ير بأجمل منه ، ثم غاب قليلا وعاد بالمروة البيضاء في يده ، سلمها لنسران وودعه شاكرا له حسن صنيعه.

المروة لم تبرد بشكل كاف ولذلك تعب نسران في حملها، فكان ينقلها من يد لأخرى ، لكنها سقطت من يده رغم ذلك ، نظر إليها وهي تهوي نحو الأرض ، في مكان قريب من شدا ، حيث تقوم قرية ذي عين اليوم .

لقد شعر نسران بالأسى ، وكان غبنه يزداد وهو يعلم أن الدبران لم يبرد المروة البيضاء كما ينبغي ، لذلك التفت مقهورا نحو الدبران وهو يدعي عليه قائلا: كن تابعا للثريا حتى تقوم الساعة ، طردت ولا لحقت ، ومنذ ذلك الحين فإن الناس تسمي نجم الدبران باسم : التابع .

اللومة الذهبية

خاضوا المعارك، معركة تلو أخرى، حتى ضاقت بهم تمهمة فسكنوا الاصدار، ضاقت بهم الاصدار فاعتلوا ظهر السراة ، واصلوا المسير ، معهم نساؤهم وأطفالهم وحيوأناتهم، في أيديهم الرماح ، وعلى ظهورهم (الزعب) يأكلون الحب اليابس ، يقضمونه تحت أضراسهم التي أتعبها قلق المصير.

وصلوا إلى بطائح النهيين، فلما أعجبهم ترابها مدوا أيديهم وباعدوا بين أصابعهم ، فلما تخللها الهواء قالوا : هذه للمدر وللوبر على حد سواء ، من أراد أن ينتهي شقاؤه فعليه بالنهيين ، لقد أدركوا أي مكان عظيم هذا ، وأي بطائح هذه البطائح الخصيبة، فمال منهم فريق بأهلهم وحلالهم ، وواصل الباقون سيرهم.

ولما أسلمتهم خطاهم إلى قرى مغسل ، انساحت أغنامهم وبقية حلالهم في أكنافه ، شربوا من عين المغسل حتى ارتووا ، واغتسلوا مغسلا باردا، فلما بان لهم ما بان من هذا المكان قالوا : هذا السهل فيه المرعى وفيه المفلى ، فمن أراد أن يغسل عن حياته الفقر فلينزل ، فنزل فيه فريق منهم بأهلهم وحلالهم.

وفي مكان ما من الأرض الممتدة بين النهيين وثروق، كأنت الأرض طرية ، تفوح منها رائحة الطين ، فقيل لهم : قِرّوا هنا فهذه قُرّا ، في ذلك المكان ، توقفت الحيوأنات ، وفي حركة طقوسية وضعت رقابها على الأرض الطرية ثم أسبلت أجفانها ، هنا تقدم كبير القوم ، وغرس حربته في قلب الأرض ، ثم أنتزعها يقطر من طرفها الثرى ، وقبل أن يتحرك من قومه إنسان قال لهم : هنا

سار الباقون يحدوهم الأمل في العثور على مكان لا يقل عن النهيين والمغسل وقُرّا، عبروا الكثير من الأماكن الجميلة، لكنهم عندما توسطوا ثروق، تلفتوا ذات اليمين وذات الشمال، استنشقوا نسيمه وشربوا من بئره العذب، غرسوا رماحهم في تربته فخرجت أسنتها حمراء بحمرة الثرى ، قالوا ثروق ملهمة البروق فأقاموا في ثروق بذراريهم وحلالهم.

تعاقبت الأيام والشهور والسنين ، وتناسل الناس وتكاثروا حتى امتلأت بهم الشعاب والفجاج والأودية ، وأصبحت المسحاة لا تفي بحاجتهم ، وأمسى جهدهم لا ينهض بمطالبهم ، فاحتاجوا إلى غوث من الله يشد أزرهم ويساعدهم.

قال حكماؤهم : فلنجأر بشكوأنا إلى الله ، لنعتلي قدوم ضان وبيضان ومشوّف وأثرب ، ثم ليقول كل منا في سره : يا ملك يا مالك يا حي وكل شيء هالك أودعتك نفسي وما أنا مالك ، ولنعلق رجاءنا على من بيده ملكوت السموات والأرض ، خالقنا وخالق ذرارينا وحلالنا وهو بنا بصير .

برزوا إلى جباهم تلك ومعهم ذراريهم وحلالهم ، طلبوا من لا يرد طالبا ، علت صدورهم وهبطت ، تسابقت دموعهم وعيونهم معلقة بالسماء ، دعوا الله مخلصين ، ثم عادوا من حيث أتوا ، فما وصلوا دورهم حتى نزل المطر كأنه من أفواه القرب .

سمعوا هاتفا يبشرهم بثورين شديدين ليسا كثيرانهم التي ألفوها ، بل أقوى وأكبر لا تمل ولا تكل ، ولومة للحراثة ليست كالآلة التي ألفوها ، لومة سنتها من الذهب ، وعيانها من العاج ، وعودها من الأبنوس .

قال الهاتف : هي متروكة في هوران الشريف ، مع كل ثور حارث ، فخذوا الثورين والحارثين من هناك ، فلما أصبحوا تنادى عوارفهم ، ثم تصاحبوا وهبطوا هوران الشريف ، فألفوا سانية ما رأت عيونهم مثلها أبدا، ومعها لومة ما شهدوا مثيلا لها حتى في الأحلام ، ومعها حارثان كأنهما من قوم عاد بل أفرع طولا، أحدهما اسمه صافرة والثاني نافره .

استاق الرجال سانيتهم العجيبة ، وحملوا لومتهم الأعجب ، ومضوا بالحارثين حتى استقروا في السراة ، فما أتم الحارثان تركيب آلة الحراثة حتى شرعا في حراثة ثروق وما حولها في أقل من الساعة ، فأخذوها إلى قَرَى قُرّا وما قبلها وما بعدها فأتمت ما بدأت في أقل وقت.

حرثت السانية بعدها من بيضان حتى مشارف مغسل في ساعة من العصر ، ثم حرثت حتى أتمت النهيين ولم تغرب شمس ذلك اليوم ، والناس من شغلها في عجب ، ومن فضل الله ورحمته في رضى وشكر وامتنان لوجهه الكريم ، كيف أثارت المدر وحرثت البلاد من أول ثروق حتى آخر النهيين في نهار واحد ؟.

كأنت السانية تحرث ، وتسوق ، وتديس ، وفي كل مرة يعقّل فيها الحارثان عدادهما ، وتتوقف السانية عن العمل ، كأنا يأخذانها إلى بطن وادي راش لترعى ، ويعود الحارثان إلى بيتهما في منتصف وادي المِغْرِق .

بقيت السانية تعمل بلا كلل ولا ملل ، وبقيت اللومة جديدة مسنونة سالمة ، وبقي الحارثان على قدر كبير من الاحترام ، وبقي الناس حامدين الله على فضله ، يتناوبون السانية فيما بينهم ، لم تفسد ضمائرهم يوما ، ولم تسود قلوبهم ولو لحظة واحدة ، ولم يدخل الحسد نفوسهم ولو لبرهة يسيرة .

لكن دوام الحال من المحال ، فقد اضطربت بعض النفوس ، وتغيرت بعض الطباع ، ودخل الحسد فأفسد النوايا ، والحسد إذا حل بأرض أفسد ماءها ومرعاها ، وقد قيل : السماء لا تمطر على حاسد ، وقيل : سقى الله أرض الفسّاد ولا سقى أرض الحسّاد.

نشر بعض الحساد إشاعة حول لحم الثورين، قال: من أكل منه ضمن لنفسه الخلود، فصدق ضعاف العقول ذلك ، وما فطنوا للخبث الذي انطوت عليه الشائعة، ولذلك دبروا مكيدة بليل ، وحزموا رأيهم على خطف الثورين وذبحهما .

رأى المجرمون أن خطوتهم الأولى تبدأ بقتل الحارثين، فتوجها إلى حيث هما في وادي المِعْرِق المنحدر من السراة ليصب في وادي راش ، وهناك كمن المجرمون حتى لاحت لهم من الحارثين غرّة فقتلاهما .

خطف الأشقياء الثورين فصعدا بهما السراة ، وفي غابة تغطيها أشجار العرعر، أخرجوا جنابيهم يقطر منها الشرّ، تحلم نفوسهم بلحم من أكله لا يجوع ولا يعرى ، ثم لا يموت ولا يفنى .

ألقوا بالثورين أرضا ، ثم شرعوا في ذبحهما ، لكن الثورين ما إن شعرا بحزّ الشّبَا في عنقيهما، حتى قاما على أرباعها ثم هربا بسرعة لا يصدقها عقل ، ومع ذلك فقد لحق بها الأشقياء .

انطلق الثوران يسعيان ، والأشقياء في إثرهما، بين طارد ومطرود ، حتى وصل الجميع جبل المخافة ، وجد الثوران مغارة في جبل المخافة فدخلاها ، فأغلقت المغارة بابها عليهما من دون الأشرار.

حاول الأشرار فتح نقب في عرض الجبل لاستعادة الثورين ، لكن النصف الذي كأنت فيه المغارة قد تحرّك فجأة، ثم إنقارَ وانفصل عن جبل المخافة ، ثم استدار حول نفسه وطار بالثورين بين السماء والأرض .

استبد الحزن الشديد بالنصف الثاني لجبل المخافة، وتألم كثيرا لانفصال نصفه عنه ، فسمى الناس ذلك النصف الحزين: حزنة ، وانقار النصف الآخر وانفصل عن أصله هربا بالثورين فسماه الناس : القارة .

راقب الأشقياء القارة وهي تطير عاليا ، ثم تتجه نحو جبل شدا ، ثم تهوي بجواره ، فأسقط في أيديهم ، وعادوا أدراجهم وقد يئسوا من الثيران ولحمها الذي يمنح لآكله الخلود ، يتلاومون فيما بينهم.

قال واحد منهم ، فاتت السانية فلا تفوتن اللومة ، إنها لومة من ذهب وعاج وأبنوس ، فإن خاب أملنا في لحم الخلود ، فلا يجب أن يخيب من لومة الثراء ، لذلك شرع المجرمون في البحث عن اللومة الذهبية .

ذهب المجرمون إلى المِعْرِق حيث بيت الحارثين ، فوجدوا الناس قد دفنوهما في قبرين متلاصقين في المعرق ، ولم يجدوا اللومة ، قالوا لعلها في البارِك آخر مكان حرثت فيه فلم يعثروا عليها .

فتشوا عنها في كل مكان ، من النهيين حتى قرى مغسل ، ومن قرى قُرّا حتى ثروق ، فما عثر عليها أحد ، فبقيت شغل الناس الشاغل ، يتساءل عنها الصغير والكبير ، والغني والفقير ، وكلما خمّن الواحد منهم مكأنا ذهب إليه فوجد غيره قد سبقه إليه ولم يعثر عليها ، ولا تزال مفقودة حتى اليوم كما لايزال قبرا صافرة ونافرة في المعرق حتى اليوم . .

حكايات الناس

أبو قطنه

كان هناك شاب فقير يعيش على حرفة الاحتطاب ، يأخذ حبله على كتفه كل يوم ويخرج إلى الغابة المجاورة ، فيحتطب في أول النهار ، ويبيع ما جمع في آخر النهار ، وإلى ذلك فلديه شجرة سدر عظيمة في فناء بيته ، يجمع منها ثمار النبق في كل موسم فيحمله على رأسه ويبيعه .

هكذا كان يعيش ، وبتلك الحرفة كان ينفق على نفسه وعلى أمه ، وهي الأرملة المسكينة التي كسرت صباها بعد موت زوجها ، وجعلت من بقية عمرها وقفا لتربية هذا الشاب ، الذي جاء بدوره وفيا معها فلم يبتعد عنها يوما ولم يتضجر من خدمتها أبدا.

عاد الشاب في يوم من الأيام فوجد أمه ساهمة حزينة على غير عادتها ، تضايق كثيرا لذلك جلس بقربها ثم سألها : ما بك يا أماه ؟ قالت وبشكل مفاجئ وقاطع : اقطع هذه السدرة الملعونة ، سأل مستغربا : السدرة ؟ سدرتنا هذه ؟ قالت : نعم ، اشحذ فأسك ثم لا تنم وهي باقية في فناء الدار.

أذعن المسكين لأمر أمه ، ودون تردد أو استبيان ، شحذ فأسه ، وخرج إلى فناء الدار ، حيث السدرة الملعونة كما تقول أمه ، وهوى على جذعها قطعا ، ومع كل ضربة كان يسب السدرة ، ويذكرها بجزاء كل سدرة تضايق أمه ، أو تسبب لها كدرا وضيقا .

بعد أن أنجز المهمة ، جمع حطبها ووضعه في حبله ثم نهض به ليحمله إلى سوق الحطب، وفي سوق الحطب باع ذلك الحمل ، ثم قبض الثمن ، وعاد أدراجه إلى بيته ، وهو يفكر في موقف أمه المفاجئ من شجرة السدر ، ويحث السير ليصل فيسأل أمه عن سرّ ذلك الموقف .

استقبلته أمه بالترحاب شاكرة له طاعته ، داعية له بالخير ودوام التوفيق ، ولما همّ بالجلوس بادرته قائلة : أنت لم تسألني عن سبب رغبتي في قطع السدرة ، قال : لا ، لم أسأل ، فهل لي أن اسأل الآن ؟ قالت : كنت نائمة في الحوش ، وعندما رفعت رأسي رأيت غرابا على السدرة ينظر نحوي ، ولما كنت في أقل القليل من ملابسي فقد ساورتني الشكوك في نية الغراب ، وفي نوايا كل الطيور التي تحط على السدرة فتهتك سترنا ، لذلك قلت : هذه السدرة أحق بالقطع والإزالة .

هلل الابن وكبّر ، ثم قبّل رأس أمه ، وأنفها وكفّها ، ولم ينس أن يمطر الغربان المتطفلة بوابل من الشتائم واللعنات ، وأن يعرّج على السدرة البائدة فيصب عليها جام غضبه ، بل قد عاهد أمه بعدم غرس أشجار حول الدار تكون مطية للغربان الأشرار ، ومن سار على نهجهم في كشف أستار البيوت .

مرت الأيام وتتابعت الشهور ، وفي قيلولة يوم من الأيام كان يجلس على تل مجاور للبيت ، كان يرى من مكانه ذلك نافذة من نوافذ بيته ، وكان يرى بائع حاجيات النساء قد وقف بجوار النافذة ، وصندوقه المليء بحاجيات النساء على مهمته ، بما يحوي من طيوب وأمشاط ومشابك وسواها .

كان المشهد أقرب إلى الحلم منه إلى الحقيقة ، أمه تفتح النافذة ثم تخرج رأسها قليلا ، وعندما اطمأنت إلى غفلة البائع تناولت مشطا ومكحلة ، وبهدوء أغلقت النافذة ، فرك صاحبنا عينيه ، حاول أن يجد تفسيرا دون جدوى ، البائع ينتصب غافلا عن بضاعته ، وأمّ الشاب سرقت مشطا ومكحلة .

وقف على قدميه ، تسمرت عيناه على مسرح الحادثة ، نقل بصره إلى حيث كأنت السدرة ، عاد به إلى النافذة ، وضع يده على جبينه ثم قال : يا رب ، جلس ، وضع رأسه بين كفيه ، رفعها وسحب نفسا عميقا ، أخرج الهواء من صدره وأغمض عينيه برهة ثم قال : واه ، ثم انخرط في بكاء مكبوت.

كأنت الصدمة كبيرة بالنسبة له ، ولم يكن على سعة أفق ليتقبل ما كان ، أو يتعامل معه كخطأ بشري يمكن إصلاحه مع الأيام ، ولم يصادف عاقلا يساعده على امتصاص الصدمة ، ولذلك قرر ترك بيته ووالدته ، والهجرة إلى القرية الكبيرة ، ولم يترك فرصة للمراجعة ، بل لم يفكر في توديع أمه أو إبلاغها بما عزم عليه .

عندما همّ بعبور مدخل القرية الكبيرة قبض عليه الحرس ، وأفهموه أنه مطلوب من كبير أمناء القرية على وجه السرعة ، حاول أن يعرف السبب دون جدوى ، فالحراس أنفسهم ليست لديهم أية معلومات ، لكنهم قالوا بأنهم سيأخذونه إلى كبير الأمناء ، وكبير الأمناء سيتولى تقديم التفاصيل المطلوبة .

أخذه اثنان من الحرس ، وصحباه في الطريق إلى كبير الأمناء ، وكان طوال الطريق يضربها أخماسا في اسداس ، ظن أنها أمه قد سارعت بإبلا غ أحد ما عنه ، لكنه تراجع عن ذلك فأمه غير متعلمة ، ولا تعرف شيئا عن مسائل البلاغات والأمناء والحكام ، فلعله بائع الحاجيات إذن قد فطن إلى السرقة فاشتكاه واشتكى أمه .

أدخلوه على كبير الأمناء فتهلل وجهه ، ووقف على قدميه يستقبل صاحبنا هذا ، ثم أجلسه إلى جواره وصرف الحرس ، مال كبير الأمناء نحوه وقال له : اعلم يا ولدي أنه كأنت لشيخ القبيلة نعامة يربيها في بستانه ، وفي

ذات صباح افتقد حارس البستان تلك النعامة ، فبحث عنها الحارس في كل زوايا البستان لكنه لم يعثر عليها ، فأعلن الشيخ أن نعامته قد سُرقت.

بحث الحرس والخدم والحشم والناس عن نعامة الشيخ في كل مكان دون جدوى ، وضع الشيخ جائزة لمن يدل عليها حية أو ميتة ولم يصل إلى نتيجة ، ولما تحدث إلى منجمه الخاص قال له المنجم : ستعثر على السارق ، ولن يدلك عليه إلا أول غريب يدخل المدينة في أول ساعات ثرّيا الخريف .

ابتسم صاحبنا عندما قال له كبير الأمناء : أنت يا ولدي هو ذلك الغريب الذي كان أول غريب يدخل قريتنا في أول ساعات ثريّا الخريف ، ابتسم وقال : وكيف لي أن أدل على سارق نعامة الشيخ وأنا لا أعرف الشيخ ولا نعامته ولا حتى قريتكم الطيبة هذه ؟ آمل أن ترحم غربتي يا سيدي كبير الأمناء وأن تعفيني من هذه المهمة المستحيلة .

قال كبير الأمناء : هذه هي مهمتك ، وليس شرطا أن تدل على السارق من ساعتك هذه ، سنسكنك في مكان نظيف مرتب ، ونطعمك أحسن الطعام ، ونلبسك أجمل اللباس ، ونمنحك فرسا جميلة وقوية ، وعليك أن تجتهد في معرفة السارق ، أنا لا أعرف كيف سيكون هذا ولكنه كلام المنجم والمنجم كاذب ولو صدق .

منذ تلك الساعة أصبح صاحبنا الطيب شخصا مهما في هذه القرية ، ولقد زاد من أهميته تلك المهابة التي كأنت تحف بموكبه ، يحيط به الخدم والحراس ، ويمتطي ظهر فرس أشهب ، على رأسه عمامة من الصوف وعقالا من الحرير ، وعليه ملابس من خز وقطن وكتان كأنها ثياب السلطان.

عندما جاء يوم العيد، خرج مع الشيخ وكبير الأمناء في موكب واحد حتى دخلا مصلّى العيد، جلس الملك وأجلس صاحبنا على يساره وكبير

الأمناء على يمينه ، وفي لحظات وصل رجل عجيب ، كان الرجل يمشي بلا حذاء لكنه يبطن قدمه بلفافات من القطن ، وكان يمشي ببطء شديد ، يتفحص موضع قدمه في الأرص بدقة واهتمام .
مال شيخ القبيلة نحو صاحبنا الشاب وقال له : هذا الرجل يُسَمّى أبو قطنه ، سموه أبو قطنه لأنه يبطن قدميه بالقطن حتى لا يقتل النمل أثناء مشيه فيتحمل إثما ، هل رأيت ورعا مثله ؟ قال صاحبنا بتلقائية عجيبة : نعم ، أمي يا مولاي ، وقد سرقت مشطا ومكحلة ، و هو سرق نعامتك فاقبض عليه الآن .

صعق شيخ القبيلة، واضطرب وتغير، ثم مال على كبير الأمناء وقال والزبد يملأ شدقيه : خذوا هذا الخسيس وألقوا به خارج القرية ثم احرسوا مداخلها شهرا كاملا حتى لا يدخل إليها ثانية ، وبإشارة من إصبع كبير الأمناء كان صاحبنا محمولا على أكتاف غليظة ألقت به خارج القرية.

في اليوم التالي التقى الأمناء مع شيخ القبيلة وسألوه: أي جرم قد ارتكبه هذا الخسيس حتى استحق عليه ما كان ؟ قال الملك : يسيء الظن بأمه ، ويتهم أبا قطنة بسرقة نعامتي ؟ تصوروا يا أمناء القبيلة ، رجل يتحرز حتى عن أرواح النمل و يسرق نعامة ؟ .

قال كبير الأمناء بعد تفكير : لكن المنجم قال لك إن أول غريب يدخل المدينة من مدخلها الشمالي في أول ساعات ثريا الخريف هو من سيكشف عن لص النعامة ، وهذا هو أول غريب يدخل المدينة من مدخلها الشمالي في أول ساعات الخريف ، قال شيخ القبيلة : نعم منجمي قال ذلك ، ولكنه اتهم رجلا يضع قطنا في قدميه حتى لا يزهق روح نمله ، نملة واحدة يا رجل .

قال كبير الأمناء: حسنا ، فما الذي يحول دون التحقق من الأمر ؟ أرى أن تأخذ كلام الشاب على محمل الجد يا مولاي ، ثم لكل حادث حديث بعدئذ ، وافق الشيخ بعد تردد ، لكن حجج الوزير كأنت مقنعة .

أثبتت التحقيقات أن سارق النعامة هو الرجل أبو قطنه ، واعترف بسرقته للنعامة ، وبسرقات أخرى ، وجرى البحث عن صاحبنا وراء أسوار المدينة ، وفي كل مكان تصل إليه عيون الشيخ، لكن دون جدوى .

وادي شباعة

يحكى أن مزارعا نشيطاً استطاع أن يبني مجموعة من المدرجات الزراعية في حلق واد من الأودية الخصيبة ، وعندما اكتمل بناء المدرجات قام بزراعتها ، وعندما اخضرت جنباته وعمرته سنابل القمح أسماه وادي شباعة ، لما اشتمل عليه من مدرجات زراعية تنبت القمح الذي يملأ البطون حد الشبع، ومع تكاثر الحساد حوله إلا أنه كان يعمل بجد ودأب في مزارعه تلك ، لا يترك فيها " روبة " ولا حجراً ولا شجيرة من طفيليات الأشجار التي تعطل نمو القمح إلا وأزالها ، ولم ينس تربية أولاده الثلاثة على حب تلك المزارع وتدريبهم على صيأنتها والعناية بها فجعل من تلك المدرجات سلة غذاء وجامعة للتربية في آن معا.

ومثل أي كائن حي يولد ويعيش ثم يؤول حاله إلى الموت فقد مات ذلك المزارع النشيط فأقيم له مجلس عزاء تداعى إليه الناس من كل مكان، لقد حزن أبناؤه وشاركهم الناس الحزن محبة أو مجاملة كما هو ديدن الناس.

في يوم العزاء الثالث وفد على مجلس العزاء شخص غريب الملامح له شوارب معقوفة كأنها الكلاليب، ما كاد يقترب من مجلس العزاء حتى ألقى بنفسه على الأرض وأخذ يلطم وجهه وينثر التراب على رأسه فعرف الناس أنه صديق للميت فاقتربوا منه وشدوا من عزيمته ونصحوه بالصبر والاحتساب، وهو يستمع إليهم قليلا ثم يغشى عليه بعض الوقت ثم يعود إلى وعيه ثم يغشى عليه وهكذا حتى تماسك أخيرا وأخذ موقعه داخل مجلس العزاء.

تحدث الغريب عن عميق صداقته للميت، وعن حزنه لوفاته، ولم ينس أن يصب جام غضبه على الأيام التي باعدت بينهما ، ثم تحدث عن كنز خبأه

المرحوم تحت جدار من تلك الجدران التي تسند مدرجاتهم الزراعية ، وقال أن المرحوم قد أقسم عليه أن يخبر به أبناءه الثلاثة بعد وفاته ، لكن الغريب – كما قال – قد نسي الجدار الذي دفن فيه ذلك الكنز، وطفق يلعن ذاكرته التي نبتت عليها الطحالب وبالت عليها الثعالب .

انفض العزاء، وسافر الغريب ، ودارت الآراء بين الأبناء الثلاثة ، فرأى الأكبر تجاهل الموضوع تجنبا للضرر الذي سيلحق بالمدرجات عقب هدم جدرانها ، وربما كان الكنز لا يساوي تكلفة الهدم ثم إعادة البناء بعد الهدم ، وقال الأوسط : إن تجاهل ذلك الكنز من أجل حفنة قمح هو الغباء يمشي على قدمين ، ولقد أيده الأصغر واصفا هدم الجدران بالفرصة المواتية لإعادة بنائها على أسس أفضل خصوصا وقد باتت قديمة أكل عليها الدهر وشرب .

كان ابن الأملس حاضرا ، وهو شاعر وحكيم من حكماء عصره وصديق من أصدقاء والدهم ، ولقد حاول أن يثنيهم عن ذلك ، قال لهم : أيعقل أن يسر أبوكم بخبر هذا الكنز لرجل غريب من دونكم ؟ كيف يبني لكم والدكم هذه المدرجات العملاقة ثم يخفي عنكم خبر كنز مدفون ؟ وهذا الرجل الغريب ، من منكم شاهده قبل اليوم ؟

لم يستمعوا لنصح الرجل الحكيم ،بل تنادوا في صباح أغبر وشرعوا في هدم الجدران " المعارق " بحثا عن الكنز الذي لم يجدوا له أثرا حتى أتموا هدم آخر جدار في مزرعتهم .

الأبناء لم يجدوا الكنز المزعوم ، والسيل لم يمهلهم كثيرا فقد أحال تلك المدرجات إلى منحدر أجرد، وبعد ان كان اسمه وادي شباعة أصبح مكأنا تعوي فيه الرياح ، وبكى الأبناء الثلاثة ، وبكى معهم ابن الأملس وقال

قصيدته التي يقول مطلعها : يقول ابن الاملس و يا صرم حالي .. صريم الرشا في الدَّرج والمحال .. صرام الحيا في رياض مِريعة .

حوتان

مارس الكثير من عمليات النصب وتفنن في أساليب الخداع ، ولما لم يجد من يكتشف ألاعيبه فقد واصل ممارساته المشينة تلك، وفي كل مرة كان يأتي بفكرة أسوأ من سابقتها ، وفي كل مرة كان يجد زبائن مغفلين تنطلي عليهم حيله ، وتجوز عليهم أساليبه الماكرة .

أرتفع صراخه ذات يوم في ساحة من ساحات السوق ، يا سما هب لي بلح ، يا سما هب لي لبن ، يا سما هب لي بلح ، يا سما هب لي لبن ، وعندما اجتمع عليه الناس من كل حدب وصوب ، وضع قدرا تحت سَرَب (ميزاب) كان في دار مجاورة ، ثم واصل النداء ، يا سما هب لي بلح ، يا سما هب لي بلح .

لم يكمل نداءه ذلك حتى انهمر البلح من سرَب البيت (الميزاب) واستمر منهمرا حتى امتلأت القدر ، تحت دهشة المارة وذهولهم ، فسحب القدر الأولى وأبدلها بقدر ثانية ثم أخذ يصرخ ، يا سما هب لي لبن ، يا سما هب لي لبن ، وإذا باللبن يسقط من المرزاب كأنه الشلال .

عندما امتلأت القدر لبنا، تقدم أحد المشاهدين وقال له : ما الخبر يا هذا ؟ تطلب بلحا فيتساقط عليك رطبا جنيا ، وتطلب لبنا فينزل عليك لبنا سائغا للشاربين ، قال النصاب : والعسل ؟ أتريدون عسلا مصفى ؟ ثم صرخ : يا سما هب لي عسل ، يا سما هب لي عسل .

صب العسل المصفى حتى امتلأ القدر ، ثم وضع القدر بين أيديهم فأكلوا حتى شبعوا ، فلما شبعوا سأله سائل : لم نعرف السر الآن يا هذا ،

أهو في القدر ؟ أم في الصراخ ؟ أم في السَرَب ؟ ضحك النصاب ثم قال لهم : بل هو في السَرَب ، هذا سَرَب عجيب ، أطلبه فيجيب .

تقدم رجل آخر تبدو عليه علامات الثراء مع مسحة لا بأس بها من الغباء وسأل : هل تبيع هذا السَرَب ؟ قال النصاب : نعم ، ما جئت به هنا إلا لأبيعه ، ولكنه سَرَب باهظ الثمن . قال السائل : باهظ الثمن ؟ وكم يكون ثمنه الباهض هذا ؟ قال النصاب : خمسمئة ريال فرانسة فضة من نقد البلد .

دفع الرجل خمسمئة ريال فرانسة فضة من نقد البلد ، واستلم النصاب المبلغ بعد أن تأكد من العدد ، ثم أذن للشاري بأن يأخذ السَرَب فصعد وقام بتفكيكه ثم نزل يحمله على كتفه ، ولما استقر على أرض السوق ، خبأ السَرَب في كيس من القماش ثم حمله على ظهره متخذا سبيله نحو قريته .

النصاب استدعى شريكه الذي كان يصب البلح واللبن والعسل عبر المرزاب من غير أن يراه أحد ، وعندما نزل من على سطح الدار ضاحكا ، ناوله النصاب نصيبه من الخمسمئة ، ثم افترقا على أمل اللقاء في حيلة جديدة ، أما النصاب نفسه فقد انصرف إلى بيته وهو يفكر في خطوته القادمة .

كان النصاب يدرك أن المغفل الذي اشترى السَرَب سيكتشف حقيقة السَرَب ، وسوف يعيده له لا محالة ، ومن ثم فمن حقه أن يسترد الخمسمئة ، لذلك لا بد من تصرف معقول يتخلص به من الرجل ، تحفظ له ماء وجهه ، من ناحية ، وتحفظ له الريالات الفرانسة من ناحية ثانية .

في اليوم التالي كان المغفل يطرق باب النصاب بقوة، افتح يا ملعون، عليك لعنة الله والملائكة والناس إلى يوم الدين ، فتح النصاب الباب متظاهرا

بالنوم مستنكرا ذلك الضجيج ، دافع المغفل عن الضوضاء التي سببها ، وقال بأن عملية الغش التي وقعت عليه كفيلة بأن تجلب عليه كل ضوضاء الكون .

أقسم النصاب على المغفل بأن يدخل ويشرب القهوة ، ومن بعد القهوة ينظر في أمر السَرَب ، فإما إصلاح وإما رد للخمسمئة ، والغلط مرجوع كما يقال ، وضحكا كثيرا بعد أن عادت حبال الود بينهما ،ثم ترك النصاب ضيفه ، وتوجه نحو باب المجلس ليستعجل طلب القهوة .

شتم زوجته لأنها تأخرت في إعداد القهوة ، ثم أقسم قسما مغلظا ليقطعن رقبتها بالسكين إن لم تأت بالقهوة على وجه السرعة ، ثم عاد لضيفه ، أبدى المغفل تذمره مما سمع وقال للنصاب : تقطع رقبة المسكينة ؟ تزهق روحا من أجل دلَة قهوة ؟ أي جبروت هذا يا رجل ؟ يا أخي لا كأنت قهوة ستزهق روحا بريئة .

شرعا يتحدثان حول السَرَب ، وفجأة أنتضى النصاب سكينا من حزامه ونهض ، نهض معه المغفل وهو يسأله بوجه الله أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، كان المغفل ينتفض من رأسه حتى أخمص قدميه ، وكان النصاب هادئا وإن كان قد تلبس حالة غضب يتظاهر به أمام ضيفه المغفل .

أكّد له أنه لن يقطع رقبتها، ولكنه يهددها بذلك فحسب ، فهي تعصى أوامره كما يقول ولا بد من وقفة حازمة ، تركه المغفل ليخرج ، وما هي الا دقيقة أو أقل حتى علت أصواتهما وارتفع الخصام بينهما ، ثم دوت صرخة تُقَطِع نياط القلب ، أعقبها صوت الزوج يحملها مسئولية ما حدث .

كان المغفل واقفا على قدميه داخل المجلس، لكنه كان يقترب من الباب حتى يوشك أن يخرج ليرى ما الذي يحدث ثم يتراجع حياء ، يعود باتجاه

الباب ثم يتراجع حياء ، كل ذلك بحسب وتيرة الخصام خارج المجلس ، إلا الصرخة الحادة الأخيرة قد أخرجته حتى استوى واقفا أمامهما .

كان النصاب قد تمكن من طرح زوجته أرضا ، وتمكن من وضع قدمه اليمنى على كتفها الأيمن بينما جانبها الأيسر تلقاء الأرض ، جمع بيسراه شعرها ثم حمل السكين الحادة بيده اليمنى ، وهوى بها على رقبتها ، يمررها للأمام وللخلف، والدماء تنهمر من الرقبة بغزارة، والمغفل يتوسل: بوجه الله لا تفعل يا رجل .

عندما رأى المغفل زوجة النصاب مضرجة بدمائها ، تقلصت شفتاه حتى انفرجت عن لثة صفراء تقطر هلعا ، نظر إلى الزوج وقد رفع ظهره ، تتلاحق أنفاسه ، صدره يعلو ويهبط ، والسكين في يده فقال له بصوت مكبوت : قتلتها؟ قتلت أم عيالك نعلك الله ؟ ثم انخرط في البكاء حتى دخل في نوبة نشيج حادة جدا .

رمى النصاب السكين جانبا وتوجه نحو المغفل يربت على ظهره ويسليه وكأن القتيلة هي زوجة المغفل لا زوجة النصاب نفسه ، وكان المغفل يعاتب النصاب عتابا حادا وإن كأنت كلماته تخرج مهلهلة من بين أسياف النشيج الذي سيطر على صدر المسكين وعلى جهازه التنفسي .

دخلا إلى المجلس ، أجلس النصاب المغفل على الفراش ثم توجه نحو نافذة تطل على حديقة داخلية وأخذ ينادي : حوتان ، حوتان ، محيي الموتان ، فما هو إلا نداء واحد حتى أقبل قط أسود ، قفز من الحديقة حتى استقر في فم النافذة ، ثم قفز قفزة ثانية وضعته على كتف النصاب .

تحسنت حالة المغفل قليلا ، وأوشك أن يعود الأنتظام إلى جهازه التنفسي، وتحت وطأة الفضول نهض واقترب من النصاب يسأله عن هذا

القط الاليف الوديع، قال له النصاب: هذا قط يحيي الموتى، وسوف ترى الآن ما يفعله مع زوجتي، أخبره بذلك ثم ترافقا إلى فناء الدار حيث الجثة .

نادى النصاب قائلا : حوتان، حوتان، محيي الموتان . فشرع القط يدور حول القتيلة حتى توقف إزاء عنقها ، ثم شرع يلعق الدم من رقبتها ، لم يطل الوقت حتى لعق القط كل الدم ، ثم بدأت زوجة النصاب تفتح عينيها شيئا فشيئا ، عندما أتمت فتح عينيها استوت جالسة كأنما أنتبهت من نوم عميق .

هلل المغفل والنصاب وكبّرا بأعين متسعة، تعلوها الدهشة ، وإن كأنت حدقتا المغفل أكثر اتساعا ، أما الزوجة فقد قامت تمشي مترنحة تكاد تسقط على الأرض ، حتى دخلت دارها ، بينما بقي القط الأسود العجيب في المكان يلعق بقايا دم متناثر على أرض الحادثة .

تحرك الصديقان ، المغفل والنصاب حتى استقرا على الفراش الوثير داخل المجلس ، لقد نسي المغفل واقعة السَرَب، وأصبحت أمام واقعة القط الأسود العجيب خبرا قديما ، حتى حادثة القتل محيت من الخاطر تماما أمام حادثة الحياة ، ولذلك دار الحديث كله حول القط الأسود حوتان .

ما سرّ هذا القط الأسود العجيب ؟ من أي كون جاء ؟ ما الذي جعله قطا مختلفا يحيي الموتى ؟ هل ينتمي إلى القطط المعروفة أم تراه من قطط الجن والعفاريت ؟ هل هناك قط أو قطط أخرى بنفس هذه القدرة العجيبة ؟ هل ما فعله القط نابع من قدراته الخاصة أم هي نتاج تأثير قوى سحرية خارجية ؟

كأنت آخر استفسارات المغفل تدور حول إمكانية الحصول على هذا القط بعينه ، أو على قط آخر لكن بنفس هذه القدرة العجيبة في إحياء الموتى ، ولقد فهم المغفل أن النصاب لا يجد مانعا من بيع القط ، لكن ثمنه لن يقل

عن ألفي ريال فرانسة فضة من نقد البلد ، ولا يجد مانعا في القبول بألف ريال فقط عطفا على خسارة المغفل في صفقة السَرَب.

قال المغفل : عفى الله عنك يا أخي في مسألة السَرَب ، وجُعل السَرَب بل سُرْبان الدنيا كلها فدى لقدميك الطاهرتين ، أما أنا فقد أقسمت بالله أن أدفع لك الألفين بالتمام والكمال ثمنا لهذا القط العجيب ، ثم ناوله كيسا يمتلئ بالريالات الفضية ، أخذه النصاب وقد اصفرت شفتاه حياء وهو يقول : يا عبدالله لقد صغرت الدنيا ورب الكعبة في عيني أمام فضلك وكرم أخلاقك يا صديقي ، لا بد من إعادة نصف المبلغ لك ، لكن المغفل قال : لقد أقسمت وأنتهى الأمر.

خرج المغفل يحمل القط بين يديه ، ودخلت زوجة النصاب ضاحكة وهو تقول : بألفين يا مجرم ؟ هات نصيبي وهات ثمن عنزتي التي ذبحتها ، وهات ثمن أتعابي مقابل تحمل أمعاء العنزة وهي ملفوفة حول رقبتي معبأة بالدم ، ضحك النصاب أيضا ، ثم أضاف : سأعطيك ما طلبتِ يا عزيزتي ، ولكن علينا قبل ذلك أن نسلم هذه الدار لأصحابها ونغادر قبل أن يكتشف المغفل حقيقة حوتان .

هرب النصاب وزوجته من هذه البلدة ، أما المغفل فقد وصل إلى داره ، وعندما استقبلته زوجته قال لها : أحضري سكينا في الحال ، أحضرت المسكينة السكين فأطبق الزوج على حلقها تحت دهشتها ودهشة أبنائها من حولها ، ثم ألقى بها أرضا ، ووضع قدمه اليمنى على كتفها الأيمن ، تاركا جانبها الأيسر تلقاء الأرض ثم قام بنحرها وهو في غاية البرود وفي منتهى الاطمئنان .

ماج البيت وراج وعلا صراخ الأبناء ، لكنه طمأنهم إلى أن القط العجيب سوف يحييها ، نادى على القط : حوتان، حوتان ، محيي الموتان ، لكن حوتان لم يستجب ، حمله بيديه ووضعه على رقبة زوجته الميته ، لكنه لم يفعل شيئا ، صرخ فيه : حوتان ، حوتان ، محيي الموتان ، دون جدوى ، وكزه بإبهام قدمه اليمنى ليصحو من غفلته : حوتان ، حوتان ، وحوتان كان يقترب من الدم ثم يشمه فيرفع رأسه متعففا عن دم الآدمي .

أدرك الأبناء أن أباهم قد فقد عقله ، خاصة عندما زادت حركاته الهستيرية نحو القط وشرع يكيل له السباب ، تغامزوا فيما بينهم وقرروا تقييد أبوهم ، لقد قيدوه فعلا ، وبعد أن سلموه للحرس السلطاني ، غسلوا أمهم المسكينة ، وكفنوها ، وصلوا عليها صلاة الميت ، ثم دفنوها .

بِسِيس عَمار

عمّار شاب طيب كان يرتاد سوق الخليف مصطحبا بسيسا (قط صغير) دربه على كثير من الحركات البهلوانية التي تثير ضحك المارة وتنال إعجابهم ، لقد بدأت شهرته وشهرة قطه الصغير في داره وبين اخوته ثم في قريته ثم في سوق القرية الذي يجمع إلى قريته قرى أخرى من حولها .

في سوق القرية قابله رجل من قرية أخرى فأشار عليه أن يأخذ بسيسه الظريف ذلك ويذهب به إلى مكة الكرمة حيث يكثر الناس هناك من أهل بلاد العرب ومن غيرهم من الحجاج ، ومن يدري فلربما أكل ذهبا من وراء هذا القط العجيب ومن وراء حركاته البهلوانية العجيبة .

راقت الفكرة كثيرا لعمار فتأبط قطه العجيب وسار مع أول قافلة من القوافل المتجهة إلى مكة المكرمة ، وفي يلملم نوى بالعمرة فلبس ملابس الإحرام ، وعندما وصل مكة مال على تاجر هندي من تجارها وتوسل إليه أن يترك القط وديعة لديه ريثما يطوف بالبيت العتيق معتمرا .

وافق التاجر على مضض وقبل هذه الوديعة الغريبة فهي المرة الأولى التي يتقبل فيها قطا أمانة عنده ، لكنه تعاطف مع الشاب ومع رغبته في آداء العمرة ومع ذلك فما لبث القط أن استرعى أنتباه التاجر بطبيعته الأليفة وبما يقوم به من حركات عجيبة فقرر أن يعرض على الشاب شراء هذا القط .

رفض عمّار كل عروض التاجر، وأظهر تمسكه الشديد بالقط وقال إن القط قد أصبح مرتبطا به فكل الناس تسميه بسيس عمّار ولذلك فليست لديه أدنى رغبة في بيع صديقه الحميم وبالتالي فقد استرد وديعته وشكر التاجر

على أمأنته وعلى صبره وتحمله للقط كما أثنى على نظرته الودية للقط وإعجابه به ثم انصرف .

اتخذ عمّار مكانه في جانب بارز من جنبات شارع المدَّعَى وهو شارع تجاري مسقوف لا يبعد كثيرا عن الحرم المكي الشريف ، وهناك أخذ يردد :

بسيس عمّار

أمك تناديك

من أسفل الدار

لشحمة الفار

والقط في هذه الأثناء يسعى ثم يغير ، يقفز في الهواء فيأتي في قفزاته العالية بالأعاجيب ، يهبط فيأتي في هبوطه بالأعاجيب ، والناس بما يفعل فرحون وبآداب المشاهدة مؤمنون ، ولذلك كان الواحد منهم لا يبرح المكان حتى يدفع ما تجود به نفسه من المال .

في يوم من أيام عمّار وقطه في شارع المدَّعَى جاءت امرأة من نساء الحجاج فأعجبها العرض وبعد أن نقدته مبلغا محترما من المال قالت له : لو ذهبت بهذا القط إلى بلاد الكواجر فسوف تضحك ابنة سلطان الكواجر فتتزوجها فتصبح سلطأنا على بلاد الكواجر.

سألها عمّار وأين هي بلاد الكواجر ؟ فقالت هي بعيدة جدا بين بلاد السند وبلاد الهند وعليها سلطان عادل رحيم لم يرزقه الله الا بابنة وحيدة ربّاها فأحسن تربيتها وهيأها لتكون سلطانة على بلاد الكواجر من بعده ، لكن الله قد ابتلاها بمرض الغم فاستولى على قلبها دونما سبب ، فهي مهمومة حزينة على الدوام .

سأل عمار : وهل أستطيع إضحاكها وقد عجز الكواجر عن ذلك ؟ قالت : نعم ،قطك هذا أعجوبة وله تأثيره على القلوب وخاصة قلوب النساء ، أنا امرأة وأعرف ذلك . قال لها : وهل أنت واثقة أنه فيما لو أضحكتها سيزوجني بها ؟ قالت نعم وينصبك سلطأنا على الكواجر من بعده ، هذا عهد مكتوب ومعروف عندنا هناك .

شد عمّار رحاله إلى بلاد الكواجر فركب البحر من بندر جدة ومكث شهرين أو تزيد حتى وصل كراتشي على أطراف بلاد السند ، وهناك استأجر دارا يضع فيها متاعه وأمواله ريثما تصل قوافل الكواجر وربما امتد به الأنتظار إلى الشهر أو أقل منه قليلا .

عندما كان عمار يعاين الدار التي سيستأجرها توقف به صاحبها عند باب أسود في آخر الدار وقال له محذرا : كل غرفة وكل باب في هذه الدار هو طوع يديك ، افتح وأغلق كما تشاء إلا هذا الباب الأسود إياك ثم إياك أن تفتحه ، وعبثا حاول عمّار أن يعرف سر هذا الباب أو سببا مقنعا لمنعه من فتحه إلا أن صاحب الدار لم يذكر أي سبب ولم يزد عن قوله : هذا باب لم يذكر بخير منذ عهد الأولين.

بقي أمر هذا الباب مثل الدمّل في هواجس عمّار فكان يقف أمامه بين كل ساعة وساعة ، وكأنت تحدثه نفسه بفتح الباب بين الفينة والفينة ، بل همّ بذلك أكثر من مرة وفي كل مرة كان يستعيذ بالله من شر نفسه ويتراجع ، حتى أراد له الله أن يفتح ذلك الباب ففتحه .

فتح عمّار الباب الأسود وما أن تمّ له ذلك حتى وجد نفسه في قلب عاصفة رملية هوجاء ، أغمض منها عينيه أولا ثم جلس القرفصاء كي لا تقتلعه

من مكانه ، وعندما هدأت العاصفة فتح عينيه ثم وقف منتصبا في مكانه لكنه وجد نفسه وحيدا في صحراء خالية من الناس ومن العمران .

لقد ضاعت منه الدار والاتجاهات والجهات لكن الأسوأ من ذلك كله أنه قد أضاع قطه العجيب أيضا ، ورغم ذلك فقد اتجه إلى كثيب من الرمل فاعتلاه وأخذ يجيل النظر في كل الاتجاهات عله يرى الدار التي كان فيها منذ دقائق لكن بصره قد ارتد إليه خائبا فليس هناك من رسم أو أثر لشيء غير الرمال والكثبان الرملية.

جلس على ظهر الكثيب وهو لا يدري إن كان ما حدث هو حلم أم علم ، وبينما هو على هذا الحال إذ سمع صوت أنثى تستجير به : يا مخلوق يا بو شدوق يا من لا عد يلجغ ولا يلوق استجرت بالله ثم بك من هذا العق العقوق .

نظر إلى مصدر الصوت فإذا بها حية فضية ملساء وقد اقتربت منه حتى التفت بساقه ، وقبل أن يبادر إلى التخلص منها قالت له : لا تخف مني يا عبدالله فأنا مستجيرة بك من ثعبان ذهبي يطاردني ولن ينقذني منه سواك .

طلبت منه الحية أن يخبئها في كم ثوبه حتى يعبر الثعبان فتخرج من الكم وتعود إلى ديار قومها على أن تحمل له هذا الجميل مادامت حية ، أشفق عليها فأدخلها في كم ثوبه وما هي إلا لحظات حتى أقبل الثعبان الذهبي وله فحيح وصلصلة وجلجله .

عبر الثعبان الذهبي كأنه السهم وماهي إلا دقائق حتى غاب في أفق الرمل فخرجت الحية شاكرة لعمار هذا الجميل ثم سالته : من أنت ؟ وما الذي جاء بك في هذه الأرض القفر ؟ سرد لها عمّار حكايته مذ كان يطوف بأرجاء سوق الربوع بالخليف حتى وصل إلى ما وصل إليه.

أنكرت الحية أن يكون هذا المكان قد شهد عمرأنا أو بشرا حتى الآن ، ولم تجد تفسيرا أو تبريرا لذلك الباب الأسود أو لهذه النقلة العجيبة من مدينة آهلة إلى صحراء جرداء ، لكنها وعدت بمساعدته اعترافا بجميله .

قبل أن تغادر الحية الفضية المكان نزعت ثلاث شعرات فضية وأعطتها لعمّار وطلبت منه أن يحرق شعرة في كل مرة تضيق به الحال وتنسد أمامه السبل لتأتي إليه على جناح السرعة فتقدم له العون المناسب ، لكنها حذرت في الوقت نفسه من تضييع هذه الشعرات في مشاكل قد يكون في مقدوره أن يتصرف بإزائها دون مساعدة من الحية .

وضع الشعرات الثلاث في جيبه وانطلق في اتجاه عشوائي تاركا الأمر لقدميه تأخذه إلى أي مكان بعيد عن هذه الرمال ولعله يموت في هذه الأثناء فيريح نفسه من عناء هذا اللغز المبهم الذي وجد نفسه محاصرا به منذ فتح الباب الأسود.

قادته قدماه إلى مرتفع من الرمل قد أنحسر من أعلاه عن كتلة من الصخر فقرر أن يصعد ذلك المرتفع علّه يبصر شيئا يكسر رتابة المكان ، وما إن استقر ونظر عند اقدام المرتفع حتى وقعت عيناه على آلاف مؤلفة من العقارب السوداء تملأ واديا يمتد من أقصى يمينه حتى أقصى يساره .

كان منظر وادي العقارب هذا منظرا مريعا مفزعا لكنه قد وصل إليه بعد مسيرة يوم كامل أو ينقص بضع ساعات ولذلك كان اقتحام هذا الوادي خيارا مقدما على غيره من الخيارات ، وحيث إن تلك العقارب من الضخامة والكثرة بمكان فإن شعرة صديقته الحية مطلوبة الآن .

أشعل الشعرة وفي غمضة عين كأنت الحية حاضرة غير أنها قد عاتبته على تبذير شعرة في قضية كهذه كان بإمكانه أن يجتازها بسلام لو طرد الخوف

من داخله ، إنه يخاف من العقرب التي يعرفها لكن هذه العقارب مختلفة عنها ولا خوف منها .

تركته وذهبت فقطع الوادي بسلام رغم عقاربه المفزعة، ثم أخذته قدماه إلى واحة صغيرة وجد فيها نبعا عذبا وشجرة لوز واحدة بها سبع ثمرات من غضاريف اللوز فقط ، قطفهن ثم فققهن وأكل اللبابات السبع بداخلهن متعجبا من حالتها على هذه الهيئة ، وحيث أن قواه قد أنهكت كثيرا طوال يوم كامل فقد توسد ذراعه ونام تحت شجرة اللوز.

استيقظ مع نسائم الفجر الأولى فواصل سيره في حرة سوداء ترتفع حينا وتنخفض حينا وبدأ منظر الرمال يتوارى شيئا فشيئا حتى اختفى من المشهد تماما ، وصلت به قدماه إلى عقبة كاداء تعترض طريقه فتناولها صعودا حتى استقر على ظهرها .

ومثلما رأى واديا يمتلئ بالعقارب في يومه المنصرم فقد رأى واديا يمتلئ بالحيات في يومه هذا ، فكر في اجتياز الوادي لكن منظر الحيات وهي تجوب أطراف الوادي قد أفزعه فقرر أن يستدعي صديقته الحية فهي أدرى منه ببنات جلدتها.

أحرق الشعرة فوصلت صديقته الحية لكنها كأنت مستاءة مما فعل ، فالحيات التي يراها هنا تشبه الحيات التي يعرفها لكنه شبه في الشكل فقط ، أما الخطر فمختلف تماما لأن هذه الحيات لا خطر لها ولا خوف منها .

شدت الحية أذن صديقها عمّار وقالت له أنت شاب متهور مبذر ، لقد أضعت شعرتين في طلبين سخيفين ، ها قد بقيت معك شعرة واحدة ، شعرة

واحدة فقط وعليك أن تستخدمها في الوقت المناسب وعند الحاجة الحقيقية للمساعدة.

تركته وذهبت فقطع الوادي بسلام رغم حياته المفزعة ، ثم أخذته قدماه إلى واحة صغيرة مثل تلك التي وجد بالأمس، ووجد فيها نبعا عذبا وشجرة لوز واحدة بها سبع ثمرات من غضاريف اللوز فقط ،وكما فعل بالأمس فقد قطفهن ثم فقفهن وأكل اللبابات السبع بداخلهن متعجبا من حالتها على هذه الهيئة ، وحيث أن قواه قد أنهكت كثيرا طوال يوم كامل فقد توسد ذراعه ونام تحت شجرة اللوز كما فعل بالأمس.

استيقظ مع نسائم الفجر الأولى فواصل سيره في أرض خضراء مزهرة ترتفع حينا وتنخفض حينا وبدأ منظر الحرة يتوارى شيئا فشيئا حتى اختفى من المشهد تماما ، وصلت به قدماه إلى سور يعترض طريقه فتسلقه ولما اعتلاه نظر فعقدت الدهشة لسانه واعتراه الوجوم والخوف لهول ما رأى .

لقد رأى ثلاثة حصون شاهقة قد بنيت من جماجم البشر، وأحدها كان فيه رؤوسا حديثة القطع لايزال الدم يتقاطر منها ، فما إن امتلأت عيناه من رؤية ذلك حتى نزل من على السور ودخل في نوبة بكاء عنيفة جدا فالمنظر كان فوق احتماله .

فكر في الحية لكنه تذكر تأنيبها له فقرر أن يستجمع قواه ويذهب بنفسه إلى الحصون مستطلعا فاحصا ، لذلك تسلق السور ومشى بقامة منتصبة نحوها ، وقبل أن يقترب كثيرا رأى شيخا كبيرا يجلس مقابل الحصن وعليه علامات الحزن وفي عينيه بقايا دمع غزير .

تقدم صوب الشيخ الحزين وسلم عليه فرد الشيخ عليه السلام ودعاه للجلوس ، جلس عمّار ثم بادر بالسؤال ، مالي أراك باكيا حزينا يا عم ؟ قال

له الشيخ : يا ولدي لا تسأل ، دعني في همي وحزني وكفى ، قال عمّار : اسمع يا عم ستجدني في مقام ابنك وستجد مني العون والطاعة فأخبرني ما لذي يبكيك و والله لقد همني أمرك وأحزنني حزنك .

أطرق الشيخ ساهما ثم قال : أترى تلك الرأس التي لايزال دمها حياً ؟ إنها رأس أصغر أولادي ، وتلك الجمجمة التي في أعلى الركن الأيمن هي جمجمة ابني الأوسط ، أما تلك التي في أسفل الجدار بعد ثلاث جماجم من اليمين فهي لولدي الأكبر .

ارتعدت فرائص عمّار وهلل وكبر وحوقل ثم عاد للسؤال مجددا ، ومن فعل بهم هذا ؟ قال الشيخ : نفوسهم الأمارة بالسوء فعلت بهم هذا ، وإلا لو سمعوا كلامي لتركوا ابنة السلطان تضحك أو لا تضحك ما الذي يعنينا منها ، ضحكت أم بكت أم ذهبت في دهير القبس ، أيش علينا من السلطان ومن ابنته لا بعث ولا بعثت .

سمع عمّار هذا الكلام فكان كمن استيقظ من النوم عندما يأخذ في استعادة ذاكرته المخدرة شيئا فشيئا فتساءل بينه وبين نفسه: أهذه بلاد الكواجر قد قادتني إليها خطاي صدفة ؟ عاد عمّار لسؤال الشيخ ثانية : وما دخل ابنة السلطان يا عم وما دخل ضحكها وبكائها بهذه الرؤوس والجماجم ؟

اعتدل الشيخ الحزين في جلسته ثم قال : سلطان هذه البلاد ليس له من البنين إلا ابنة واحدة ولسوء الحظ فقد ابتليت بمرض الشقف وهو مرض يصيب حامله بالهم والحزن والغم ، ولقد تعب السلطان في علاجها دون جدوى فعمد إلى مسابقة شاع خبرها في كل الأرضين السبع ، مسابقة

إضحاك بنت السلطان ، وجعل جائزتها الزواج من ابنته تلك وتنصيب الفائز سلطأنا على بلاد الكواجر .

كأنت كلمة الكواجر مثل طشّ ضواح في كبد عمّار ، مثل كيّة من شهاب قبس ، ولذلك أنتفض قائلا : بلاد الكواجر؟ أهذه هي بلاد الكواجر ؟ قال الشيخ : وتعرفها ؟ لعلك واحد من الطامعين في ابنة السلطان وسلطنته ، الطامحين إلى اضحاكها ؟ يبدو أنك قد سئمت من حمل رأسك هذه ! أما علمت أن من يفشل في إضحاك بنت السلطان تقطع رأسه وتدخل في بناء هذه الحصون ؟

عقدت الدهشة لسان عمّار فسأل : كل هذه الرؤوس حاولت إضحاك بنت السلطان يا عم ؟ قال الشيخ : حاولت وفشلت ، وسيكون رأسك هنا بعد قليل لو حاولت ، حالة ابنة السلطان مستعصية جدا يا ولدي لقد أخفق أهل الطب والحكمة في علاجها ، وأخفق أهل الفلك والتنجيم ، وأهل الشعر والروايا ، والبضاخون والمضحكون والمعجبّون من شتى البلدان والديار .

اقترب الشيخ الحزين من عمّار وقال له : يا ولدي إني مشفق عليك من طموحات لا تقدر على تبعاتها ، وأنت ويعلم الله قد أصبحت في مقام واحد من أولادي ، سأعطيك قطيعا من الأفيال تتكسب منها وتترك عنك هذه الأحلام ، أرجوك وأتوسل إليك اقبل عرضي واسمع كلامي وطاوعني .

قال عمار : والله يا عم ما تركت دياري إلا لأظفر بابنة سلطان الكواجر أما السلطنة فليست شغلي الشاغل ، إن كنت تريد لي الخير يا عم فأرشدني إلى بيت السلطان وسترى مني ما لم تكن تراه من الآخرين الذين سبقوني ، دلني على بيت السلطان وأنتظر عودتي زوجا لابنته .

تبسم الشيخ ابتسامة لم تبدد سحابة الحزن المستقرة في تجاعيد وجهه ، وربت على ظهر عمّار قائلا : بل سيأتي بك الحرس إليّ لأقطع رأسك كما قطعت رؤوس أولادي واحدا بعد الآخر ، أنا عبّوس قطّاع الرؤوس يا ولدي فتعرف على وجهي جيدا ، أما بيت السلطان فها هو هناك .

جلس عمّار أمام قضاة السلطنة وقد شرحوا له شروط المسابقة وأخبروه أن مدفعية السلطان جاهزة لإطلاق طلقاتها السبع مع أول ضحكات ابنة السلطان ، وقد قبل عمّار الشروط فأخذوه إلى حيث يستريح ويستعد للمسابقة في ضحى الغد .

في الليل شعر عمّار بخطورة ما أقدم عليه فأخذ يتحسس رقبته ، لقد عاد إليه رشده فعاتب نفسه قائلا : لقد نسيت أن الفكرة من أساسها لم تكن واردة في الحسبان لولا قطي العجيب ، والقط قد تركته خلف ذلك الباب الأسود فما الذي رماني هذه الرمية السوداء ؟

تذكر الحية والشعرة الثالثة الباقية في جيبه لكنه همس لنفسه : لو كأنت الحية قادرة على إضحاك ابنة السلطان لفعلت ذلك مع غيري ، سأحرق الشعرة فتأتي لتقول : هذه مسألة تافهة ثم تتركني أواجه قدري على يد الشيخ عبوس قطاع الرؤوس الذي لم يرحم حتى أبنائه الثلاثة .

اهتدى عمار إلى فكرة أفضل ، يحرق الشعرة ويستدعي الحية ولكن لا لتدخل السرور على قلب ابنة السلطان فتضحك، بل لتحضر بسيس عمّار من أي مكان كان في الدنيا ، فإن جاءت ببسيس عمار فهذا يكفي و بسيس عمار سيتولى الباقي .

آمن عمار بالفكرة وأحرق الشعرة فإذا بالحية حاضرة تسعى ، سألت عمّار عن مشكلته ففوجئت بأن لعمّار قط قد تركه خلف ذلك الباب الأسود

لكنها وعدته خيرا فهي على صداقة عميقة مع أميرة البساس ولن تغيب أكثر من ساعة حتى تعود ومعها بسيس عمار .

في اليوم الموعود المشهود تأبط عمّار قطه العجيب وتوجه إلى الصالون الذي ستجلس فيه ابنة السلطان ، دخل من الباب فاستوقفه القاضي وبعد أن تحقق من اسمه بين له نتائج الإقدام على هذه المسابقة فإما سلطنة وزواج وإما إلى يد الجزار عبوس قطّاع الرؤوس .

دخل عمّار إلى حيث تجلس ابنة السلطان فتذكر أغنية كان يسمعها في بلاده تقول : ما هب من الهند ولا هب ما لسنود ، ولا هب من الحضر والا البادية ، ثم ألقى عليها السلام فلم تجب ، ونظر إلى وجهها فوجده منهكا متعبا من آثار الغم والهم والحزن .

وقف على مقربة منها ووقف بسيس عمار بجواره ثم خطبه قائلا :

بسيس عمّار

أمك تناديك

من أسفل الدار

لشحمة الفار

واشتعل المكان قفزا وحركات بهلوانية يقوم بها القط في نشاط ومهارة فاقت ما عرف عنه في الماضي ، وما هي إلا دقائق معدودة حتى ضحكت ابنة السلطان وأطلقت المدفعية طلقاتها السبع معلنة زوال حزن ابنة السلطان .

دخل السلطان مسرعا وصافح عمّار وهنأه بالسلطنة وبالزواج من ابنته لكن عمّار قال له : أما السلطنة فليس لي فيها رغبة وأما ابنتك ففي زواجي منها شرف عظيم لي لكن أود معرفة رغبتها أولا .

تزوج عمار بابنة السلطان ، أما السلطنة فقد قبل الجميع أن تتولاها ابنة السلطان ، فأقيمت الأفراح والليالي الملاح شهرا كاملا عمت فيه البهجة بلاد الكواجر من أقصاها إلى أقصاها ، وقد أمرت سلطانة الكواجر الجديدة بدفن تلك الرؤوس جميعا ودفن مرحلة عصيبة من تاريخ السلطنة معها.

بعد أن ظفر عمار بما ظفر به وبعد أن سكنت السلطنة وعادت الحياة إلى طبيعتها افتقد عمّار وزوجته السلطانة القط العجيب بسيس عمّار ، بحثا عنه في كل مكان دون جدوى ، تمنى لو بقيت لديه شعرة من شعرات الحية ليحرقها فتأتي إليه الحية فيطلب منها أن تأتي بقطه الحبيب لكن هيهات هيهات فهي ثلاث شعرات وقد استهلكهن بالكامل .

أمرت السلطانة وزوجها عمّار جميع سكان السلطنة بأن يرددوا كلمات عمّار : بسيس عمار ، أمك تناديك ، من أسفل الدار ، لشحمة الفار ، لعل بسيس عمار يسمع ويستجيب فيعود إلى حبيبه عمّار ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وفي كل مرة كان الناس يرددون تلك العبارات لا يخرج لهم إلا دويبة صغيرة جدا من بين طبقات الرمال ، ومنذ ذلك الحين تبحث الناس عن بسيس عمّار فلا تجد إلا دويبة صغيرة تخرج من بين طبقات الرمل .

ديرة بني كلب

عزمت امرأة مسنة على آداء فريضة الحج ، مصطحبة ابنتها الوحيدة ، مستغلة حج أفراد من قريتها و قدوم حجاج العُصْبَة من اليمن ، فأعدت العدة لذلك وأخبرت البعيد والقريب من جيرانها بما عزمت عليه .

عندما حل موعد السفر خرجت ومعها ابنتها إلى حيث يجتمع حجاج قريتها تأهبا للرحيل ، وما هي إلا دقائق حتى اكتمل جمعهم فساروا جميعا باتجاه سبل السلطان الذي سيضعهم ضمن حجاج العصبة .

التحمت وحجاج قريتها بحجاج العصبة ، وساروا يقطعون الفيافي والقفار، حيث لا صوت إلا أصوات التلبية تختلط بوقع أقدامهم وحوافر دوابهم على الأرض ولا تتوقف حركتهم إلا للصلاة والطعام وإلا لسوق من أسواق الطريق.

في اليوم الثاني والركب يواصل المسير طلبت الابنة من أمها أن تتوقف معها برهة من الوقت لتقضي حاجتها بعيدا عن أعين الحجاج ففعلت الأم متخذة جانبا من الطريق بسترهن عن أعين الناس ولا يبتعد بهن كثيرا عن سبل السلطان الذي يسلكه الحجاج عادة .

مضى الوقت ولما تقضي البنت حاجتها بعد ، والأم تستعر قلقا خشية أن يبتعد الركب كثيرا فتضيع بهما قدميهما وتطوح بهن بعيدا عن الطريق ، وبعد وقت طويل قضت البنت حاجتها فواصلتا المسير .

حثتا السير ولكن الركب قد ابتعد ، وصلت بهما قدميهما إلى مفترق طرق مضلل ، عرفه الناس بعد شيوع خبر هذه الحادثة باسم مضللة ، اختارتا طريقا توسمتا فيه طريق الفلاح لكنه كان طريقا ابتعد بهما عن طريق الحاج .

أوصلهما هذا الطريق إلى قرية من القرى ما رأينها قبل تلك الساعة ، ولما كان الليل قد بدأ ينشر جناحه على المكان ، فقدكان من المناسب أن تبحث الأم وابنتها عن دار تأويهما حتى الصباح ولربما وجدتا في هذه القرية من يدلهما على الطريق .

لم يطل بهما الوقت حتى أبصرهما رجل من أهل القرية فأرسل زوجته تعرض عليهما المبيت ، وقد نجحت زوجة ذلك الرجل في استضافة الأم وابنتها فأخذتهما إلى مقعد النساء وهناك التقتا أيضا بابنتي صاحب الدار.

احتفت زوجة صاحب الدار وابنتيها بضيفتيهن وبعد أن تجاذبن أطراف الحديث دخل وقت الطعام فنهضن معا إلى المائدة التي كأنت عبارة عن أطباق من العظام المجردة من اللحم وشرعن في الأكل على نور القازة التي تعد من أقل مصابيح ذلك الزمان إضاءة.

كأنت الأم وابنتها مرغمتين على التظاهر بالأكل ، وكأنتا على قدر كبير من الفزع لأن القليل الذي كان من النور قد كشف عن أياد غريبة ووجوه أغرب لأصحاب الدار، وعندما قالت البنت لأمها : وجوههم وجوه كلاب ، وكزتها الأم ثم قالت بصوت مسموع للتعمية : صدقتِ ، وجوههم وجوه كرام.

بعد سهرة لم تطل نهضت الأم وابنتها إلى فراش النوم الوثير الذي أعد لهما ، وهناك همست الأم قائلة : لقد دخلنا ديرة بني كلب ، وهم ليسوا من بني آدم وعلينا أن نحتال على أمر خروجنا من هذه الديرة ، لا تخافي يا ابنتي فسنخرج من هذه الديرة بسلام .

في الصباح تحدثت الأم مع زوجة صاحب الدار وطلبت منها أن تدبر أمر دليل من أهل هذه القرية يوصلهن إلى سبل السلطان حيث الطريق العام الذي يسلكه الحجاج عادة ، لكن زوجة صاحب الدار قد اعتذرت قائلة : في

هذا اليوم يستحيل خروج أحد منا من القرية فاليوم هذا هو يوم السوق وكل واحد يخرج فيه ليتسوق حاجة بيته من العظام التي تكفيه وتكفي عائلته لأسبوع كامل .

في الظهر كان النباح يجتاح فضاء القرية ، كان نباحا بإخلاص وتفان لا نظير لهما ، وعندما فزعت الأم وابنتها اقتربت منهما زوجة صاحب الدار لتهدئ من روعهما قائلة : هؤلاء هم رجال القرية جريا على عادتهم في نهاية كل سوق ، يستمرون في النباح لدقائق ثم ينصرف كل منهم إلى داره.

في الليل انفردت زوجة صاحب الدار بضيفتها المسنة وفاتحتها في أمر مهم ، قالت زوجي يتمنى أن توافق ابنتك على الزواج من ابني وأنا أتمنى ذلك خاصة وأن ذلك الزواج سيحميك ويحمي ابنتك من أي عدو قد يفترسكما في هذه القرية فما رأيك؟

صعقت الضيفة المسكينة بما سمعت لكنها لم تتردد في القول : لكننا من بني آدم وأنتم من بني كلب ، قالت زوجة صاحب الدار : وماذا في ذلك ؟ كلنا خلق الله ، لذكورنا ظهور مثل ذكوركم ولأناثنا أثداء مثل أناثكم ، ولو لم تتم هذه المصاهرة فلن تجدي من يضمن سلامتك وسلامة ابنتك في هذه القرية .

اختلست الأم المسكينة نظرة إلى وجه مضيفتها وإلى أنيابها الحادة ، وتذكرت ماهي فيه من ورطة لا مخرج منها إلا بالموافقة على هذه المصاهرة المفجعة فقالت لمضيفتها : على بركة الله ، قالت زوجة صاحب الدار : ساعة مباركة ، ثم نهضت إلى الشباك وأخذت تعوي بشده حتى تنادت لها جوانب القرية بالعواء .

أقيمت الأفراح والليالي الملاح واحتفت أسرة الرجل بعروس ابنهم وأمها وأنزلوهما منازل الأكابر لكن الأم التي تأكد لها ضياع حجها في ذلك العام لم تنس ديارها وما تخلت لحظة واحدة عن فكرة العودة ولم تقطع أملها في الحج أبدا.

حملت العروس وما لبثت أن انجبت طفلا جميلا فرحت به وفرح به أبوه وعائلته بل سعدت به القرية جميعا ، وتهافت الزوار على أمه مهنئين مباركين عدا أمها الحبية لم تقع عينها عليها منذ لحظات الولادة الأولى وحتى تلك الساعة.

سألت زوجها الذي علت وجهه مسحة حزن مصطنع وهو يقول : البقاء لله وهذا حال الدنيا يا حبابتي ، لقد ماتت أمك وها هي معلقة بعرقوبها في فناء الدار ، سيتم سلخها وتقطيعها وتجهيزها لإطعام القبيلة في مناسبتنا العظيمة هذه .

دفعته بيدها ونهضت رغم حالتها قائلة : إطعام القبيلة ؟ بدلا من غسلها وتكفينها والصلاة عليها ثم دفنها ؟ أين هي مخافة الله أيها الكلاب ؟ قال زوجها ذو العينين الخضراوين : هوني على نفسك يا حبابتي ، بطوننا هي أكرم قبر اختاره أسلافنا لموتأنا . لكنها لم تأبه به ولم تحتمل الموقف كله فأزاحته عن طريقها وهي تقول : أريد أن أرى أمي حبيبتي لعنة الله عليكم أجمعين .

وقفت باكية أمام الذبيحة المعلقة بعرقوبها الأيمن في كلاب ثابت في طرف الفناء ، كان الجلد قد انزاح عن قوائمها واستقر في منتصف جسمها مسدلا على أكتافها التي ظهرت بلا رأس بينما كأنت كفاها بارزتين من تحت الجلد المسدل .

تناولت كف أمها الذبيحة ، الكف الذي لم يغادره جماله رغم تداخل مساحات الحناء وبقع الدم ، تناولته ثم انحنت وقبلته ظاهرا وباطنا ، يبست في صدرها شهقة لا زفرة لها بعدها ، وحتى دموعها يبدو أنها قد تحجرت في مآقيها .

انحنت فوقها حماتها المسنة ورفعت جسمها النحيل عن كف أمها الذبيحة ، وفي بادرة للمواساة قالت : لم الحزن يا بنيتي وأنت ستموتين كما ماتت ؟ وقعت هذه العبارة عليها كخنجر حاد انغرس في قلبها فقالت في حالة ضعف : وأنا أيضا ؟ حسبي الله عليكم .

صعدت إلى غرفتها حيث ينام صغيرها ، رفعت عنه الغطاء ، أطبقت يديها حول عنقه ، همت أن تضغط على حنجرته بإبهميها لكن قلبها لم يطاوعها ، استيقظ الجرو المسكين فحملته واحتضنته ثم ألقمته ثديها.

لقد اتخذت في هذه اللحظة قرارها ، لا بد أن تغادر هذه القرية الملعونة وستأخذ طفلها البريء معها لابد أن تنقذه أيضا ، لكنها لن تفعل شيئا حتى تخرج من النفاس وتطيب صحتها وتتعرف على القرية ومسالكها ، مداخلها ومخارجها، مرعاها ومفلاها وكل التفاصيل التي ستساعدها على الهرب منها .

بيتت تلك النية وسعت بدأب وعزيمة وصبر لتنفذها ، عرفت مداخل القرية ومخارجها ، تعرفت على الأرضين المجاورة للقرية ، فحصت كل طريق يخرج من القرية فحصا جيدا حتى تكونت لديها صورة كاملة عن طريق الخلاص.

عندما حل الوعد لفّت رضيعها وخرجت ، كأنت ليلة مقمرة والقرية تغط في نوم عميق ، والسكون يلف أرجائها ، التقت بحارس ليلي بادرها بالسؤال :

إلى أين فقالت : عظيمة رضيمة لا تنقل ضيمه ولا توطي ضيمه ، فأخلى الحارس سبيلها لأنه فهم من عبارتها أنها تحمل معها بعض عظام تتصدق بها .

نفدت بجلدها وبرضيعها من تلك القرية ومساربها ، ثم سلكت طريقا ابتعد بها كثيرا عنها ، وعندما طلع النهار رأت أنها تسير على مقربة من جبل كبير ورأت في عرض الجبل كهفا صعدت إليه فدخلته ونامت ونام رضيعها معها.

استيقظت وقد مرّ من النهار نصفه ، فغادرت الكهف وسلكت الطريق نفسه باحثة عن الخلاص ، سارت تحث الخطى حتى ألقت بها قدماها على أعتاب قرية صغيرة وادعه ، وما هي إلا لحظات حتى اقتربت منها امرأة كبيرة سلمت عليها ورحبت بها ودعتها للمبيت في ضيافتها .

لقد أكرمت هذه السيدة مثواها وأتت بلحم قديد وخبز وثريد وعرفتها على ابنتها التي جاءت من ديار زوجها لتلد مولودها الأول تحت سمع أمها وبصرها ، وعندما حان وقت النوم جعلت لها فراشا بجوار فراش ابنتها النفاس زيادة في إكرامها وبرها، وجعلت فراش الرضيعين متجاورين بين فراش هذه وفراش تلك .

في الهزيع الأخير من الليل استيقظت أختنا الهاربة من ديرة الكلاب على أصوات غير مألوفة وهمهمات غير طبيعية وعندما أشعلت الضوء هالها أن رأت ابنها يأكل مولود مضيفتها ، لقد أتى على رأسه وجانب من كتفه ويده وهو مستمر في التمهمه لا ترى إلا حدّ أنيابه وبريق عينيه.

أدركت المسكينة أن ابنها ابن كلب ولن يخرج عن طبيعة آبائه وأجداده ، ولما لم يكن هناك متسع من الوقت للنقاش والتبرير والاعتذار ومواجهة الفاجعة الجديدة فقد رأت ان تحمل ابنها وأن تهرب إلى حيث لا أحد .

شعرة الجعير

يحكى أن امرأة من أجيال قد خلت خشيت أن تذبل مع الأيام محبة زوجها لها ، فيتركها إلى غيرها ويتزوج ثانية ، جارة عليها (ضرة) تشاركها معيشتها وتحيلها إلى نصف زوجة في أعدل الأحوال .

المرأة – في بحثها عن منقذ – توسمت خيرا في " فقيه " القرية واعتقدت أنه بحكم معاشرته للكتب سيجد لها حلا، ورقة محبة يكتبها فتجمع بها قلب زوجها إلى قلبها، تربطه بها ربطا لا يستطيع معها الفكاك ولا يجد في نفسه لامرأة أخرى أدنى رغبة .

تربصت بالمكان والزمان حتى آنست منهما فرصة فعرضت على فقيه القرية مشكلتها ، قالت له : داخلة عليك دخالة الضعيف على القوي أن تكتب لي عملا أربط به قلب زوجي فأشد به وثاقه وأحول بينه وبين الزواج من ثانية تعكر صفوي وتنهبه مني .

بادر الفقيه إلى توجيهها بأن القلوب بيد مالك الملك جلّ شأنه وعظم سلطانه ، لا يفرق ولا يجمع إلا هو سبحانه ، تعإلى في ملكوته ، وما الأنس والجن إلا عبيد تحت رحمته لا يملكون لبعضهم نفعا ولا ضرا .

لكن السيدة المسكينة — تحت وطأة القلق على مستقبلها في كنف زوجها الذي تحبه – ألحت وازدادت إصرارا ، بل وتطاولت على قامة فقيه القرية وعلى علمه حينما قالت بأن هناك من الكتابات ما يفرق وهناك ما يجمع ، فإن كان التفريق حراما فالجمع هو حلال بل حلال الحلال .

فكر الفقيه في شأن هذه المرأة المسكينة ورأى أن يعمل عقله في هذه المسألة ، خاصة أنه إن لم يجد لها حلا يساعدها به فسوف تذهب إلى غيره وسوف تعرض نفسها لمكر الماكرين ولاحتيال المحتالين .

جلس الفقيه – وكان واقفا – وقال لها : كتابة ورقة المحبة أمر سهل ، لكن العمل لا يكتمل إلا بثلاث شعرات من شارب الجعير (الضبع) ، سأكتب الورقة ثم أطويها طيا على الشعرات الثلاث ، طيات ثلاث ، ثم تدفن في مذود حمارتكم والشمس في كبد السماء ، وبعد أيام ثلاثة سيبدأ شعر زوجك في التساقط ، يتساقط ويتساقط فلا يكتمل القمر ويصبح بدرا إلا ورأس زوجك يبابا لا شعر فيه .

سألها : هل تقبلين بزوج أصلع ؟ قالت : أقبل . زوج أصلع أفضل من نصف زوج ، قال الفقيه : إذن بادري بإحضار الشعرات الثلاث ، ثلاث شعرات من شنب الضبع قالت وقد جحظت عيناها : شعرات جعير ؟ قال : نعم .

تمتمت بينها وبين نفسها : شعرات جعير . ثم رفعت رأسها وقالت : و كيف ؟ كيف آتيك بشعرات ثلاث من شنب الضبع ؟ قال : تصرفي . هذا شأنك أنت وليس شاني أنا ، ثم دخل داره وأغلق الباب من خلفه.

مرت الأيام يوما يجر يوما، وبعد شهر أو زيادة جاءت السيدة من أعالي الجبال وفي يدها شعرات ثلاث، جاءت بها إلى الفقيه قائلة : هاك ، هذه هي الشعرات الثلاث التي طلبت بالوفاء والتمام .

عقدت الدهشة لسان الفقيه واستبد به الذهول، بل جحظت عيناه وهو يتناول من يدها الشعرات الثلاث ، وحيث أن الأمر يصعب تصديقه فقد بادر إلى سؤالها : متأكدة أنت من هذه الشعرات ؟ متأكدة أنها شعرات ضبع

ومن شاربه على وجه التحديد ؟ ثم كيف تيسر لكِ ذلك ؟ كيف امتلكتِ الشجاعة والجرأة حتى حصلتِ على هذه الشعرات من شارب ضبع مفترس ؟؟

قالت السيدة وعلى وجهها علامات الرضى :كنت أقف الساعات الطوال غير بعيد عن مغارة الجعير (الضبع)،وبقيت على هذه الحال عدة أيام حتى ألف رؤيتي، ثم اقتربت أكثر ومكثت أياما أكرر ذلك في كل يوم حتى ألف رؤيتي ، ثم اقتربت أكثر وأكثر ومكثت أياما على تلك الحال حتى ألف رؤيتي، وهكذا شيئا فشيئا ويوما فيوما حتى كنت يا فقيهنا أجلس على فم المغارة وهو يذهب ويعود ويذهب ويعود باطمئنان عجيب، ثم كنت أرمي له قطعا من اللحم فيأكلها، ثم أرميها في المرة الثانية لمكان أقرب من المكان الأول، ثم أخذت في إطعامه اللحم بيدي ،وكلما آلفني اقتربت منه أكثر وأطعمته أكثر، ثم زادت الحميمية بيننا حتى أصبحت أربت على ظهره وأمرر يدي على مهمته فتغشاه السكينة حتى ليغفو الغفوة على ركبتي لا يخشى مني خطرا ولا أنتظر منه اعتداء.

نظر إليها الفقيه فاغرا فاه ثم قال لها : يا أمة الله ، كل هذه المحاولات من أجل شعرات ثلاث ؟ أيام طوال وأنت تحتالين على الضبع حتى تمت لك السيطرة عليه ، وهو ضبع مفترس وأنت امرأة وليس معك أي سلاح سوى سلاح الصبر والعزيمة.

قالت المرأة والفخر يملأ منخرها المحلى بالزمام : نعم ، ولو عدت إليه الآن لظفرت من شعره بما أريد ، لقد أصبح معي وكأنه قطة أليفة ، بل قد تكون القطة أصعب مراسا في بعض الأحيان.

قال الفقيه : لقد كان لك ذلك دون سحر أو عمل أو طلاسم ، كان لك بالمسايرة والمسايسة والصبر والرفق والحكمة والأناة . أليس ذلك كذلك ؟

قالت : بلى ، قد كان ، لقد بذلت معه من الصبر والحكمة والأناة والمسايرة والملاطفة والمسايسة ما لم أبذله مع أحد من الخلق ، بشرا كان أم حيوأنا .

قال الفقيه : إذن افعلي مع زوجك يا أمة الله ما فعلت مع الضبع ، افعلي ذلك " عليك هبايب الله " ، سايسيه ولاطفيه وارفقي به وترفقي عليه وسايريه حتى يصبح أليفا مثلما أصبح الضبع أليفا ، المحبة والكراهية نصنعها نحن يا أختاه ، لا يصنعها السحر ولا تصنعها الطلاسم ، لقد قلمت أظافر سبع مفترس بالعقل والحكمة واللين والرفق والرحمة فكيف لا تمتلكين قلب زوجك بشيء من العقل والحكمة واللين والرفق والرحمة ؟.

نظرت المرأة إلى الأرض ، كأنت تحدق في نقطة ما عند أطراف أقدامها ولم تنتبه إلا على صوت باب الفقيه وقد أوصده من خلفه ، ضحكت ضحكة يخالطها الحياء ثم انطلقت صوب دارها.

يا خالي المخلخلة

كان بعض بسطاء الفلاحين يعيش مع زوجته في ستر ودعة وطمأنينة ، وكأنت تعيش معهما أخته التي تصغره بسنين، فكان أخا وأبا وكافلا لها مكان والديهما اللذان ماتا وتركاها في رعايته وتحت أمأنته.

مرّت الأيام وكبرت الأخت ويبدو أن ما يتحقق لها من نمو في عقلها وجسمها ومن حسن في شكلها ولونها ومن مهارة في عملها قد أوغر صدر زوجة أخيها عليها فتعاظمت كراهيتها لها مع الأيام حتى وصل الأمر بها للتفكير في التخلص منها.

عادت زوجة الأخ إلى مخزون الشر في ذاكرتها فتفتقت ذاكرتها الأمارة بالسوء عن خطة سوء تضمن الإيقاع بأخت زوجها الغافلة تماما عن مشهد الكراهية هذا بأكمله ، وتضمن كراهية سوداء ستنغرس بقوة في نفس الأخ الغافل أيضا عن مشهد الكراهية هذا.

عمدت زوجة الأخ إلى عش غراب قريب من قريتهم فأخذت منه بيضة عادت بها خفية إلى دارها وهناك غمرت البيضة بخلطة من حب الرشاد والحلبة وحب الخردل وتركتها على تلك الحالة ثلاثة أيام بليإليهن.

في هذه الأثناء كأنت تتلطف كثيرا مع أخت زوجها وتلمح لها أن صفارا يوشك أن يطمس عينها فتغدو عمياء ، وفي اليوم الثالث قالت لها : يا مغزولة ، لن يتضرر من عمى عينيك أحد سواك فأنتبهي لنفسك.

في اليوم الرابع اقتربت من أخت زوجها ثم قالت لها : أراك مهمومة مغمومة بسبب صفار عينيك ، أليس كذلك ؟ قالت نعم يا أختاه ،

فضحكت زوجة الأخت ضحكة ماكرة ثم قالت : يبدو أنكِ قد صدقتِ ذلك وأنا ما كنت إلا مازحة معك.

ضحكت أخت الزوج وقالت معاتبة : خرعتيني يخته راحت بقعا عليك ثم دخلت في نوبة ضحك ومودة مع زوجة أخيها التي بادرت بسحبها من يدها قائلة: أدخلي لنلعب سويا لعبة " لقمة لقمان " .

دخلتا سويا إلى غرفة صغيرة من غرف البيت فأحضرت زوجة الأخ صحنا به ست لقم من عصيدة قد كُوِرت تكويرا وقالت : سأضع في فمك لقمة وعليك أن تبلعي تلك اللقمة دون مضغ فإن تم لك ذلك فخذي لقمة وضعيها في فمي وعليّ أن ابلعها دون مضغ فإن فعلت وضعت لقمة ثانية في فمك وهكذا ننظر أيا منا يأكل لقم ثلاث دون مضغ .

نجحت أخت الزوج في ابتلاع اللقم الثلاث دون مضغ بينما أخفقت زوجة الأخ في اللقمة الثالثة متعمدة الإخفاق لتمرير حيلتها على أخت زوجها الغافلة ، أما أخت الزوج فقد فرحت بما تحقق لها من كسب وزادت زهوا حينما امتدحتها زوجة أخيها قبل أن تختتم مديحها بقولها : ما شاء الله عليك يا سكنية !

افترقتا وكل واحدة منهن فرحة بما تحقق لها ، أخت الزوج وقد كسبت المسابقة متقدمة عن زوجة أخيها بلقمة ، زوجة الأخ فرحة بتمرير لقم ثلاث خبيثة إلى بطن أخت زوجها وقد كوّرت تلك اللقم الثلاث على ثلاث بيضات، بيضة حمام وبيضة طائر الرخم وبيضة غراب استقرت في بطن الغافلة وعليها أن تنتظر حملا ينتج لها حمامة ورخمة وغرابا !

شرعت زوجة الأخ تهيئ الأجواء والظروف لفضح أخت زوجها ، لقد كأنت تدعو لها بالهداية كلما جاءت على ذكرها أمام أخيها حتى أصبحت

تلك الدعوة ملاحظة بشكل مقلق مما دفع الزوج لسؤال زوجته عن سر هذه الدعوة ، أما زوجته فكأنت تتظاهر بالخجل وتتعمد الخروج بالحديث عن مساراته تلك .

عندما ألح الزوج على زوجته بعد طول صبر كشفت له ما كأنت تستره طوال أيام مضين فقالت له إن أخته غاوية ولها أخلاء تعاشرهم ولكم قد سعت في نصحها احتراما لسمعة أخيها إن لم تكن لتخاف الله ، لكنها أصرت على المضي في طريقها لاهية ويبدو أنها قد حملت سفاحا.

صعق الزوج بما سمع من زوجته ولم يحتمل الموقف فأرسل لها صفعة قوية قائلا لها : عليك سود الهبا يا كاذبه أختي أشرف من دنس مثل هذا، إياك والعودة ثانية لمثل هذه الأراجيف وإلا قطعت لسانك من قعره.

تحملت الزوجة صفعة زوجها قائلة في دهاء وخبث : لا ألومك فالموقف لا يحتمله رجل مثلك ولكن إذا أصبح بطنها مد عينها فالله يعينك ويعينها ، لن تجدني هنا يومها فإن بطن الأرض أستر لي من ظهرها وعيب حماتي يعيبني أيضا.

موقف الزوجة هذا هيأ الزوج لقبول الأكذوبة أكثر من أي وقت مضى فأطرق ساهما وقد علت وجهه سحائب الهم والغم والقلق ، وامتلأت نفسه كدرا فضاقت وضاقت به الأرض ثم انهار باكيا .

اقتربت منه زوجته الشريرة وقالت له : لا تبك فالدموع لا تغسل عار الخائبات ، مدنسات العمائم مقربّات المصيبة ، احفر لها حفرة وادفنها تحت جنح الظلام واذا تم لك ذلك عد للقرية مستصرخا أهلها وقل لهم : خرجت تحتطب ولم تعد .

نوازع الخير كأنت لا تزال باقية في نفس الزوج ولذلك طالب زوجته بدليل يستند عليه ، صمتت الزوجة الشريرة برهة ثم قالت : الحامل في بواكير حملها تضعف أمام قليل البرد وتضعف أمام قليل الشمس ، خذها إلى الظل ثم انظر كيف تتأذى من برد الظل فتطلب منك الأنتقال إلى الشمس ، وما إن تنتقل إلى الشمس حتى تتأذى من حر الشمس فتطلب العودة إلى الظل .

في اليوم التالي، وبعد أن استبد به الفضول إلى التجربة ، اقترح على أخته أن تمشط رأسه ، وعندما وافقت الغافلة المسكينة اقترح عليها تمشيط شعره وهما في ظل الدار حيث سبقها إليه بينما أحضرت المشط من داخل الدار ولحقت به بجوار الحائط الغربي للبيت .

شرعت الأخت الغافلة تمشط رأس أخيها وما هي الا هنيهة حتى استخفها برد الظل فاقترحت على أخيها أن يتحركا قليلا نحو المكان المشمس، ولقد وافق الأخ المغيّب وعيا على اقتراح أخته وهو يكاد يتمزق غيظا وأسى لكنه يكظم ذلك كله .

عادت الأخت الغافلة تمشط رأس أخيها لكنها ما لبثت قليلا حتى استعر ظهرها لحرّ الشمس فضحكت متعجبة من حالها وعادت لتقترح على أخيها المغيّب وعيا أن يعودا إلى حيث الظل فالشمس حارة لاهبة لا تطاق .

رغم التوتر الذي لحق به فقد قاوم الغيظ لكنه لم يكن ليقوى على الاستمرار فتظاهر بالتألم واضعا يده على بطنه ولم ينس أن يشكرها وأن يعتذر لها ، أما هي فقد شق عليها ما أصاب أخيها فعرضت عليه إحضار قدر من السنوت يأكله ويشرب عليه الماء ليخفف عنه متاعب المغص .

قال لها : أحضري السنّوت معك في صباح الغد وسوف أتناوله وأنا وأنت في طريقنا للاحتطاب من الغابة الغربية فاستعدي لذلك ، قالت له أخته : أبشر بسعدك، سأرتب الأمر مع زوجتك ونخرج جميعا.

قال لأخته : زوجتي ؟ كلا ، ليس في مقدورها أن تذهب فهي ستنشغل بزيارة أمها المريضة ، لن يذهب أحد سواي وسواك فجهزي طعاما لي ولك ، وجهزي الحمارة وحبلا قويا ثم خذي كفايتك من النوم فالطريق طويل والعمل سيكون شاقا.

لقد قرر أن يذهب بأخته إلى الغابة الغربية ثم يتركها هناك فريسة لسباعها متجنبا قتلها مباشرة فهي رغم أنها آثمة كما زينت له زوجته الشريرة إلا أنه لن يجرؤ على قتلها مهما كان الحال، ومع ذلك فلا بد أن يتظاهر أمام زوجته بأنه قد قتلها بالفعل ليغلق أمامها باب الجدل حول أخته وما كان منها.

لقد أوعز لزوجته أن تسامر أخته وأن تطيل السهر معها لتظهر في اليوم الثاني ضعيفة خائرة القوى فيسهل الفتك بها، وأفهم زوجته بأن عليها أن تتحجج بشوقها إلى مسامرة أخته خاصة وكل واحدة منهما ستخرج من الغد في طريق مختلف.

أيقظ أخته في ساعات الفجر الأولى ولما تنم جيدا بعد، لقد ظلت زوجة أخيها تسرد لها من القصص الطوال ما حمل ليلها على جناح السهر، ومع ذلك نهضت من فراشها وتذرعت حوكتها ووضعت شرشفا على رأسها وسارت خلف الحمارة التي يقودها أخيها.

وصلا إلى الغابة الغربية وقد أوقد النهار جمرته فدعا أخته إلى كهف يأويان إليه بعض الوقت طلبا للراحة استعدادا ليوم عمل شاق، تظاهر هو

بالنوم أما هي فقد غطت في نوم عميق لأن قانون الحياة يقول: من سهر الليل نام النهار.

عاد إلى بيته فأخبر زوجته بأنه قد دفن أخته في حفرة وردم عليها من التراب سبع قامات متظاهرا بالجبروت والقوة ، وزوجته أيضا بادلته التظاهر والخداع فبان على وجهها حزن مقيم فاستطال ما عرض منه ودق ما سمك منه وكله كذب في كذب و إلا فقد فرحت بما كان لها فرحا عظيما.

هو عاد إلى بيته وبنيه وزوجته التي تؤويه ، أما أخته المسكينة فقد استيقظت والنهار على وشك المغيب فجلست في مكانها فزعة ، تلفتت ذات اليمين وذات الشمال فلم تجد أخاها ، نهضت من على فراشها الصخري واندفعت نحو باب الكهف ، خرجت وبحثت عن أخيها فلم تجد له ركزا.

رحل النهار وحل الظلام فانكفأت على نفسها داخل كهف الخديعة يحف بها القلق على أخيها والخوف على نفسها من كل ظلامي متربص بالناس من بشر أو جان أو سباع ، ولقد بقيت طول ليلتها تلك خائفة قلقة تترقب حتى طلع النهار ومعه الشمس تنشر الدفء والنور في كل مكان.

لم تفكر أبدا في مغادرة الكهف أو الابتعاد عنه كثيرا فأخيها سيعود في أي لحظة وليس هناك من مكان تعارفا عليه هنا سوى هذا الكهف ، لذلك فما كأنت لتتوغل في الغابة حتى تعود أدراجها إلى الكهف وفي كل مرة تتعرف على فضاءات أوسع حول الكهف ، وفي كل مرة تتعرف عليها كائنات أكثر من كائنات الغابة.

مرّت الأيام وفي كل يوم تتسع معارفها أكثر ، آمنت أن أخاها قد تخلى عنها وأنه قد ترك الغابة عامدا متعمدا وتركها وراء ظهره، وآمنت أيضا أنها أعجز من أن تهتدي إلى طريق قريتها لذلك كله اقتربت من الغابة أكثر

ففهمت شريعتها وتعلمت قوانينها، آنست للطيور والسباع وتعلمت كيف تتعامل معها بل واتقنت لغاتها، حتى باتت كائنا من كائناتها.

لم يكدر عيشتها شيء سوى حجم بطنها الذي كان يزيد يوما بعد يوم، وهي زيادة بلا سبب ، هي لا تشتكي السمنة وليست عرضة للحمل وإن كأنت أعراض الحمل بادية عليها ، آخذة في التزايد شيئا فشيئا حتى فاجأها المخاض في قعر الكهف فولدت حمامة ورخمة وغرابا.

تراكمت عليها الهموم الثقال فالحمل كان مخيفا والولادة كأنت سخيفة، حمل أقرب إلى الإثم فهو حمل من طرف واحد ومن يصدق ذلك ؟ والولادة قد أسفرت عن ذرية من الطيور فأي ذرية هذه ؟ ومع ذلك فقد كان تعلقها بذريتها يتزايد مع تزايد اللحظات والثواني.

وكما هي عادة العقل البشري في بطئه فقد بات عقلها يسترجع الأحداث ويربط بينها في بطء شديد، ربط بين مواليد ثلاثة و لقم ثلاث، وكيف ألحت عليها زوجة أخيها أن تبتلع اللقم دون مضغ، وبين حكاية مشابهة سمعتها ذات يوم فتأكد لها أنها كأنت مستهدفة بمكيدة وأن أخاها قد تخلى عنها بناء على تلك المكيدة، وأن زوجة أخيها هي من رتبت لتلك المكيدة.

وجدت أن الغابة وسباعها أفضل ألف مرة من بيت أخيها الذي باعها ولم يقبض ثمنا ، وأن أبناءها الثلاثة أولى بالرعاية من أخيها وبنيه وأمهم التي حكمت عليها بالنفي، وقطعت صلتها بالناس، واجتثت جذورها من بيت أبيها وأمها بلا رحمة.

كبر الأبناء الثلاثة ونشأت بينهم وبين أمهم لغة تفاهم عجيبة وعظيمة ، والتفوا حولها فعزّ مكانها في الغابة ، وكانوا لها عيونا ترصد بهم ما حولها وكانوا

صفارات إنذار كلما داهمها خطر، وكانوا أدلة لها يوردونها كل مكان فيه خير لها، ان كأنت ينابيع ماء عذب ، وإن كأنت خمائل بها ما لذ وطاب وحسن من الزروع والثمار.

عنّ لها ذات يوم أن تستطلع حال قريتها وحال أخيها المغفل وزوجته الماكرة ، فاستدعت ابنتها الحمامة وقالت لها: حلقي فوق بيت يجاوره حصن وعلى ركنه اليماني شجيرة مشط الذئب وفي ساحته الشامية شجرة رُقّاع (جميز) وفي جداره الشرقي سبع صخرات بيضاء من صخور المرو الأبيض .

طارت الحمامة وعندما حلقت على المكان المذكور رأت على سطحه امرأة تنسف قمحا وتنقيه من الحجار والشوائب فهبطت حتى وقعت على مقربة منها وشرعت تلتقط حبات القمح ، هنا زجرتها المرأة قائلة : إحْمَمِّي يا حمامة إحْمَمّت عينك ، فردت عليها الحمامة قائلة : بل إحْمَمّت عين من حبّلت أمي من غير حبل وأطمتها من سد جبل.

فزعت المرأة وأدركت على الفور أن أخت زوجها باقية على قيد الحياة وأنها قد انجبت حمامة فهرعت إلى زوجها تخبره، عندما سمع هذه القصة ارتعدت فرائصه لكنه لم يستحسن كشف المستور لزوجته ولذلك أكد لها أنه قد دفن أخته بعد خنقها وأن ما قالت هذه الحمامة ما هو إلا حمحمات لا يعتد بها، نعم لا يعتد بها فما علاقة الحمامة بأخته؟ وهنا سكتت الزوجة لأن المزيد من الثرثرة قد يكشف عن فعلتها المشينة.

هلّ شهر ذي الحجة فأدركت الأخت المسكينة أن أخاها سيذبح أضحيته في عيد الأضحى ، ولذلك قالت لابنها الرخم: حلق على بيت يجاوره حصن وعلى ركنه اليماني شجيرة مشط الذئب وفي ساحته الشامية شجرة رُقّاع (جميز) وفي جداره الشرقي سبع صخرات بيضاء من صخور المرو الأبيض .

حلق طائر الرخم على ذلك البيت فأبصر خاله قد ذبح أضحيته وشرع يسلخها فحام الطائر فوق المكان، حام واقترب حتى دنا من خاله قائلا : خال يا خال هب لي من شحم الرخال ، ثم يرتفع ثانية ويحوم منخفضا حتى يقترب من خاله مرددا: خال يا خال هب لي من شحم الرخال.

فزع الرجل وأيقن أن وراء هذا الطائر أمرا، لذلك بادر إلى قطع الأمعاء الغليظة من ذبيحته وطوح بها للطائر عله يلتقطها ويغادر سماء المكان فورا ، وبالفعل فقد التقط طائر الرخم تلك الأمعاء لكنه ارتفع بها عاليا ثم أفلت محتواها من الفرث والدم ليقع على رأس خاله .

ظل الرجل يراقب هذا الطائر حتى غاب عن بصره باتجاه الغابة الغربية فحمل اللحم وأسرع نحو زوجته ليخبرها بما رأى ، ما إن سمعت منه هذا الكلام حتى قالت دون وعي منها : الحمامة هي ابنة اختك والرخم ابنها أيضا والغراب أخوهما الثالث.

اعترفت له بكل شيء ، وكشفت له عن خفايا مؤامرتها الدنيئة ثم قالت: وأنت لم تخنق أختك ولم تدفنها أيها الكاذب الجبان، وقبل المزيد من التفاصيل سمعا غرابا ينعق في الخارج ليجدا جوقة عجيبة تحلق في سماء الدار، جوقة تتكون من الحمامة وطائر الرخم وغراب أسود.

كأنت الحمامة تغني قائلة : يا خالي المخلخله ، والرخم يردد مغنيا : يا بايع أخته بالمرة ، والغراب يردد منغما : قاق قاق . واحتدمت سماء الدار غناء : يا خالي المخلخله يا بايع اخته بالمرة، يا خالي المخلخله يا بايع اخته بالمرة.

سقطت زوجة الأخ على الأرض جثة مهمدة لهول المفاجأة ، أما زوجها فقد آثر البحث عن أخته بعد أن عرف كل جوانب القصة ، فلما دفن زوجته

سلك طريق الغابة متجها إلى الكهف ذاته التي ترك أخته فيه ، وعندما اقترب من أخته أخبرها به ابناؤها الثلاثة .

قالت الحمامة : جاك أعجر طويل ، قال الرخم : يعتدل ويميل ، قال الغراب : حيله قليل ، قالت الأم : هذا خالكم قطع الله خالكم ، لا تؤذوه فالخال خال ولو كان نعال ، وماهي الا لحظات حتى دخل الكهف على أخته ، فوقع عند قدميها وبكى طالبا منها العفو مبينا ظلم زوجته لها وله ايضا.

عفت الأخت عن أخيها عندما أدركت أنهما كأنا ضحية مكيدة من زوجته ، لكنها عفت عنها أيضا ودعت لها بالرحمة والمغفرة عندما علمت بموتها وطلبت منه أن يعفو عنها أيضا وأن يترحم عليها في كل مرة يتذكرها ، وأن يحفظ سرها ويرعى أبناءها .

عادت الأخت مع أخيها وتزوجت من قريتها وكذلك تزوج أخوها وعاش كل منهما عيشة هانئة أما أبناءها الثلاثة ، الحمامة والرخم والغراب فقد أدركوا أنهم مثل سائر الكائنات لكل منهم أب وأم من جنسه ، وأن هذه المرأة الطيبة لم تكن الا حاضنة للبيض الذي كانوا فيه.

لقد قرر ثلاثتهم أن يعيشوا كما يعيش نظراؤهم من الطيور، طلقاء في الغابة، على أن يحفظوا علاقات الود مع حاضنتهم التي كأنت أما رحيمة عليهم متعلقة بهم .

حكايات السعالى

البنت السعلية

في هذا المكان تستقر قرية هائنة هادئة جميلة ، تضم عددا من المزارعين ، لكل واحد منهم بيته الذي يأويه ، وعددا من القطع الزراعية ، وبعض قطعان من الأغنام والأبقار يتسلون بتربيتها على مهمش نشاطهم الزراعي ، ويستفيدون من نتاجها الوفير وبعض من حمير وجمال وثيران تعينهم على متطلبات حياتهم داخل قريتهم الهادئة.

أما هو فقد كان واحدا من الطيبين الذين تعمر طيبتهم هذه القرية الوادعة ، له زوجة طيبة ، وابنة صغيرة جميلة أنجبها بعد سنوات من الحرمان ، وعنده خمس قطع زراعية ، وقطيع من الأغنام وبقرة واحدة وحمارة بيضاء اللون تحفظ أدوارها عن ظهر قلب مثل سائر حمير القرويين.

كان يومهم يبدأ مع ساعات الفجر الأولى ، ويمر رتيبا منتظما يوشك المتأمل فيه أن يتنبأ بتفاصيله قبل أن تتحرك دقائقه وثوانيه ، وكان هو أكثر أهل القرية أنتظاما ورتابة وهدوء بال ، لما يعمر قلبه من فيوض القناعة والرضى ، ولما جبل عليه من الطيبة والوداعة ، ولما اعتاد عليه من وضع كل شيء في موضعه.

ولما كان الحال لا يدوم إلا للواحد القهار فإن ذلك الهدوء لم يدم ، إذ سرعان ما تبدل ذات صباح عندما عثر هذا الرجل الطيب على حمل من حملان القطيع ميتا وفي ظهره نهشة قد سال منها الدم ، هي نهشة كلب متوحش أو نهشة ذئب مفترس ولكن ، كيف دخل إن كان كلبا أم ذئبا ؟ السياج عال والحضيرة محصنة ومأمونة فكيف دخل المعتدي ؟

طاف بالحضيرة من كل جهاتها ، فتدارك منها ما ظنه نقطة ضعيفة عبرها المعتدي قبل أن ينهش الحمل ، طاف بها ثانية وثالثة فلما اطمأن قلبه تفقد

السياج فلم يجد فيه ثغرة يستطيع كلب أو ذئب أن يعبرها ، قنع الرجل الطيب بما قسم الله له وصبر على ما أصابه وتأكد أن ليس له في الحمل نصيب ولذلك أوى إلى داره مؤمنا مطمئنا.

لم يكد يمضي أسبوع واحد على هذه الحالة حتى حدثت الثانية ، حمل آخر يموت وقد أحدث المعتدي نقبا في ظهره مثل النقب الذي كان في ظهر الحمل الأول ، كأنت مفاجأة لا تصدق ، حيث لا جُرّة ولا أثر ولا حتى دليل بسيط جدا يشي بأن كائنا ما قد دخل الحضيرة وافترس الحمل.

ومثلما كان الرجل الطيب صابرا في مصابه الأول ، كان أيضا كذلك في مصابه الثاني ، لكنه لم يترك التفكير لحظة واحدة في تتابع الحدثين بنفس الوتيرة وعلى مسافة زمنية قصيرة ، لقد ألح في السؤال ، سأل زوجته ، وسأل جيرانه ، لكن أحدا منهم لم يقل كلمة تنير له السبيل .

تكررت الحالة مرة ثالثة وبنفس الطريقة ولما ينصرم الأسبوع بعد ، النقب هو النقب والغموض هو الغموض ، هجوم ثالث وحمل ثالث ينهشه كائن ما بلا أدنى ضجيج ، يفترض في مثل هذه الحالات أن يحدث في مراح الغنم جلبة وضوضاء لكن ذلك لم يحدث أبد .

أمام هذا الغموض لم يكن أمام الرجل الطيب إلا أن يراقب المكان جيدا ، لا بد من مراقبة الحضيرة مراقبة لصيقة مستمرة فالعدو خفي وذكي لم يترك ما يدل عليه طيلة غزواته الثلاث ، وليست هناك أدنى بادرة يمكن أن تساعد في كشف هذا الغموض سوى المراقبة .

اتخذ لنفسه مكأنا لم يخبر به سوى زوجته ، قريبا جدا من الحضيرة ولا يراه أحد أيضا ، فكان ينام فيه نوما خفيفا يوقظه منه أدنى حفيف أو همس ،

نوم ذئب في فلاة ، أو نوم من يراقب خصما شرسا يخشى منه على الأهل والمال والولد.

أيقظه صوت خفيف كأنه حفيف غصن ، فاستند على عجزه ومرفقه ورفع رأسه قليلا ليرى ابنته الوحيدة تتسلل في خفة وحذر نحو مراح الغنم ، دخلت المراح فنزل وتبعها ، ومن ثقب في جدار المراح شاهدها وقد اختارت حملا صغيرا ثم أحكمت إغلاق فكيه بيمينها فيما غرزت أنيابها في ظهره وشرعت تمص دمه.

ألقت بالحمل على أرض المراح ميتا، وخرجت بمنتهى الهدوء لتترك لسان أبيها وقد عقدته الدهشة ، حلم أم علم ما أرى ؟ أيعقل أن تكون ابنتي الوحيدة هي الذئبة التي فعلت بنا كل هذه الأفاعيل ؟ يا إلهي أي أقدار هذه التي يتوالد عن جريانها الغموض توالد دود أعمى ؟.

لم يشأ الرجل الطيب أن يحدث قلقا لزوجته ، ولذلك استلقى على فراشه مستسلما للنوم ، طارحا همه وغمه تحت وسادته ، فإذا أصبح الصباح فسوف يتطارح همه وغمه مع زوجته ، وفي الصباح رباح.

كان وقع الخبر على زوجته كالصاعقة، ليس لأن ابنتهما الوحيدة قد افترست ثلاثة حملان ، ولكن لأنها بنت سعلية ، وطالما قد بدأت منذ الآن بأكل الحملان ، فإنها ستتطور إلى أكلهم وأكل أهل القرية الطيبين، فما العمل ؟

قالت الزوجة : هذا قدرنا وهذا نصيبنا ، رزقنا بابنة بعد صبر طويل ، وها نحن نكتشف الآن أنها سعلية وليس أمامنا إلا الصبر ، قال الزوج : الصبر ؟ نصبر حتى تأتي على آخر واحد في القرية ؟ هذا لا يجوز ، لابد من دفنها والتخلص منها نهائيا .

دفنها ؟ قالت الزوجة بفم مفزوع ، أتق الله يا رجل ، هي ابنتنا ، وفوق ذلك فهي آدمية لها روح مثلنا. قال الزوج: أية روح وأية آدمية يا أمة الله ؟ ابنتنا سعلية، هل تعرفين معنى سعلية ؟ سعلية ويجب أن نتخلص منها ذبحا بسكين ، أو حرقا بنار ، أو رميا في يمّ ، أو دفنا في تراب .

قالت الزوجة : لن تذبحها إلا وتذبحني معها ، ولن تحرقها إلا وتحرقني ، ولن تغرقها إلا وتغرقني ، ولو قمت بدفنها فلن تدفنها إلا وأنا معها ، ولكن ما رأيك لو صنعنا لها لجاما من الحديد فلا نفكه عنها إلا في وقت الطعام ؟

قال الزوج : لو فعلنا ذلك وصنعنا لها لجاما فلن نستريح من كلام الناس ، سيقول الناس أننا قساة مستبدون ، قد نزعت الرحمة من قلوبنا ، ثم تأتي التدخلات من هنا ومن هناك ، حتى نرغم على فك ذلك اللجام ، كلا يا زوجتي لن أصنع لها لجاما من حديد ولا حتى من حرير.

قالت الزوجة : فما قولك في الفقيه إذن ؟ لو ذهبت بها إلى فقيه القرية ، ثم أطلعته على ما كان منها فلربما قرأ عليها ، أو وصف لها سعوطا أو سفوفا أو دهأنا يبرئ علتها، فتستريح مما أصابها ونسلم ويسلم الناس من سطوتها.

أطرق الرجل قليلا ثم قال : الآن آخذها إليه ، قد يجد الفقيه دواء أو حلا . قالت الزوجة وكأنها قد توجست أمرا : سأذهب معكما . قال الزوج : هيا ، أحضريها ولننطلق الآن.

الزوجة لم تجد البنت في فراشها ، نادت عليها ، بحثت عنها في سائر غرف البيت فلم تعثر عليها ، أخبرت زوجها فطفقا يبحثان عنها حول الدار ، سألوا عنها الجيران فلم يخبرهم عنها أحد .

خرجوا وخرج الجيران معهم للبحث عنها في الحقول والطرقات والشعاب والأودية دون جدوى ، قاموا بجولة فاحصة على الآبار والغدران والكظائم القريبة والبعيدة دون أن يجدوا لها أثرا .

عندما يئست الأم من العثور عليها ، تذكرت أنها في عناية من هو أكثر عناية بها من والديها ، ولذلك توجهت إلى الله بالدعاء : يا رب أنت أعطيت وأنت خلقت وصرفت ، اللهم يا رب إنها وداعتك ، يدك حاضرة وعينك ناظره ، أودعناها وجهك الكريم وأنت بنا وبها عليم .

الذي حدث أن البنت قد سمعت حديث أبويها فاعتراها الخوف الشديد ولذلك قررت الهرب ، رأت أن تهرب إلى مكان لا يعرفه من أهلها أحد ، حتى لا يستدل عليها من يبحث عنها .

توغلت في ثلث الغابة الأول ثم رأت أن تستريح قليلا ، جلست على حجر فلما جلست تذكرت أن والدها قد أخرج من قدمها شوكة فوق هذا الحجر، فهو إذن مكان معروف لأبيها على الأقل وبالتالي لا بد من مغادرته فورا .

تحاملت على تعبها وسارت حتى كلّت قدماها فأنتحت جانبا من الطريق ، جلست فوق صخرة على قارعة الطريق، وعندما جلست تذكرت أن أمها قد مشطت شعرها فوق الصخرة نفسها، فهي إذن معروفة لأمها وبالتالي فلا تصلح لها الإقامة هنا .

واصلت المسير وقد بلغ بها التعب حدّه ، لم تعد تقدر على نقل أقدامها ، ارتطم إبمهم رجلها بحجر فقالت : نكّد الله عليك ، ألم تجد مكأنا تجلس فيه غير هذا ؟ قال لها : بل عليك، ألم تفكري في رفعي عن الأرض وإبعادي عن الطريق ؟ .

انحنت لترفعه ، ورفعته بالفعل ، لتجد تحته حذاء ، قال لها الحجر : البسيه في قدميك الحافيتين ، سيحملك في بقية الطريق ولن تتعب أقدامك بعد الآن ، فرحت كثيرا بالحذاء ولبسته ومشت .

مشت وكأنها لا تمشي ، مشت طويلا دون أن تشعر بتعب أو كلل أو فتور ، عبرت بجوار جبل صغير ، كان في الجبل مغارة تشرف على الطريق ولذلك قررت أن تصعد نحوها فلربما كأنت منزلا يصلح لها .

وصلت الفتاة إلى المغارة فدخلتها بحذر ، عندما وصلت أقصى المغارة رأت فيها رجلا ممدا ، اقتربت منه ، نظرت إليه فأدركت أنه سُعْلي عجوز من سعالي الغابة ، قالت له برفق : يا عم ، يا عم .

لم تكد البنت توقظ السُّعْلي العجوز حتى أمسك بها من كفيها ثم قال لها : أنت نصيبي جاء يمشي نحوي بقدميه ، كم كنت أتضور جوعا من أيام مضت وها أنت الآن بين يدي ، سوف التهمك التمهما وبكِ سوف أملأ بطني فأسد جوعي وأقيم صلبي ، وفتح فكيه ثم غرس أنيابه في كتفها.

لم يقدر العجوز على أكلها ، حاول مرة وثانية وثالثة ، فلما أخفق أخذ يحدّث نفسه : إما أن يكون سني قد خذلني وبت عاجزا عن نهش لحوم البشر، وإما أن تكون هذه البنت بنت سعلية والسعإلى لا يأكلون بعضهم ، قالت له أنا سعلية مثلك فلا تتعب نفسك .

قبلت البنت بالعرض الذي قدمه لها العجوز ، أن يحميها من النسور، حيث أنه لا يفتك بالسعإلى شيء مثل هذا الطائر العجيب ، الذي ينقض من عنان السماء لينقر عين السعلي أو السعلية ثم يسحب ألسنتهم سحبا حتى تخرج أرواحهم من بين أضلاعهم كما تخرج ألسنتهم من أقصى حلوقهم .

وفي مقابل حماية العجوز للبنت ، ينبغي عليها أن تؤمن له حاجته من اللحوم في كل يوم ، فتصيد له ما يتيسر لها من الكُبُد والقماري والحمام ، ومن الحبارى والبريهة والوبر ، ولو تيسر لها تيس هائم على وجهه أو حمل ضال أو عجل تائه فلا بأس.

مرت الأيام والأسابيع والشهور وهما على هذا الحال ، أبوها لم يعد ، والعجوز يوفر لها الحماية ، وهي توفر له اللحم ، حتى حل العجوز محل أبيها وكأنت هي في محل ابنته ، يحبها كثيرا ويخاف عليها بل يستبد به القلق لو تأخرت عنه ، وهي أيضا لا تدخر جهدا في سبيل إرضائه وكسب وده .

في ليلة مظلمة باردة ، والعجوز تحت تأثير حمى شديدة ارتعشت لها عظامه ، ووهن منها صوته ، أوقدت البنت نارا واقتربت منه واضعة كفها على جبينه ، شعر العجوز بيدها ففتح عينيه وقال لها بصوت واهن وكلمات متعثرة : يا بنيتي ، إذا بردت أطرافي ، وانقطعت نسمتي ، وييبست مفاصلي ، فاعلمي أنه الموت قد حل ، احفري لي قبرا وادفنيني.

مات العجوز في آخر ليلة الحمى تلك ، فنهضت البنت من ساعتها وحفرت له قبرا، ومن بقايا أثوابه صنعت له كفنا، ثم أنزلته بصعوبة حتى استقر في قاع القبر، ثم أهالت عليه التراب، وعندما أخفاه التراب اعتراها حزن شديد فبكت وبكت حتى بلل الدمع ظهر القبر.

كان الفقد مؤلما، وكان الفراغ الذي تركه موت العجوز كبيرا، لذلك كأنت تجد في زيارة القبر ما يخفف لوعتها ويواسي حزنها ، كأنت تجلس على القبر وتبكي ، تبكي حتى يبتل القبر بدموعها الحارة الصادقة.

في مكان الدمع ، نبتت شجرة أركوض فوق القبر ، كأنت البنت تواصل البكاء في كل يوم ، وكأنت الأركوضة تشرب من ذلك الدمع حتى ترتوي ، البنت تبكي و الأركوضة تخضر وتزهر.

امتلأت الأركوضة بزهورها التي تتدلى مثل أقماع صفراء، كأنت تلك الزهرات الصفراء تكبر يوما بعد يوم ، والبنت تراقب تلك الزهور وترويها بالدمع ، تبكي وتروي إلى أن تمخضت كل زهرة عن سعلي صغير في غاية البهاء.

السعلية والرفيقات الثلاث

خرجت الرفيقات الثلاث للاحتطاب، أخذت كل واحدة منهن حبلها وتدرعت بحوكتها، ووضعت الهطفة على رأسها اتقاء الشمس، لم تكن الغابة قريبة ولم يكن الطريق إليها سهلا ولذلك فقد خرجن مع ساعات النهار الأولى يحثثن الخطى نحو الغابة الكبيرة.

وصلن إلى الغابة واحتطبن وكالعادة فقد كأنت الرفيقة الصغرى أفضل احتطابا وأوفر حطبا وهذا أمر حرّك نوازع الغيرة في نفس الرفيقة الكبرى مما جعلها تهمس في أذن الرفيقة الوسطى بكلمات لم تلامس سمع الصغيرة المسكينة لكنها لقيت استحسان الرفيقة الوسطى.

الرفيقتان الكبرى والوسطى عقدتا العزم على عمل شيء يجعل الصغرى تعود للقرية بلا حطب، ولذلك أنتحين جانبا وحبكتا خطة لوضع رفيقتهما الصغرى في وضع يجبرها على العودة بلا حطب .

اقترحت الرفيقة الكبرى أن تقوم كل واحدة منهن بجمع ما احتطبت من الحطب وربطه بالحبل ثم يقضين بعض الوقت في الراحة والاسترخاء، وكان هدف الرفيقة الكبرى أن تنام رفيقتهن الصغرى فيتركنها تنام ويعدن للقرية دونها

.

عندما تستيقظ الصغرى فلن تستطيع حمل الحطب ، حيث لا أحد معها يضع الحزمة على ظهرها ، وهكذا تكون مضطرة على ترك الحزمة والعودة للقرية من غير حطب .

نامت المسكينة كما كأنت تتمنى رفيقتاها ، وعندما بدأ على ملامحها عمق النوم نهضت الرفيقتان الخائنتان وحملت كل واحدة منهن حزمة الحطب على ظهرها وتركتا المكان وفيه رفيقتهن المسكينة تواجه قدرا مجهولا.

استيقظت المسكينة وقد قارب النهار على الغياب ، تلفتت ثم نادت على رفيقتيها فلم تسمع لهن صوتا فأدركت أنها قد ذهبت ضحية خيانة مؤلمة ، ابتلعت حزنها وقررت أن تحمل حطبها على ظهرها وتعود إلى القرية بمفردها لكنها لم تقدر على رفع الحزمة عن الأرض ثم حملها على ظهرها.

رأت امرأة تعبر على مقربة منها فنادت : شيلي على ظهري يا عمه ، فقالت المرأة دون أن تلتفت : تشيل عليك مهمة مهمة من ورايه ، الفتاة تطلب من المرأة أن تساعدها بتحميل الحزمة على ظهرها والمرأة تعتذر وتخبرها عن امرأة أخرى ستلحق بها ولديها القدرة على مساعدتها.

بعد دقائق عبرت امرأة أخرى ، تشبه المرأة الأولى طولا وعرضا وهيئة وسيرا، قالت الفتاة المسكينة تطلب المعاونة: شيلي على ظهري يا عمه، فقالت المرأة دون أن تلتفت : تشيل عليك مهمة مهمة من ورايه ، قالت ذلك ومضت ولحظات النهار تمضي متسارعة نحو الغياب.

بعد دقائق عبرت امرأة ثالثة تشبه سابقتيها في كل شيء ، نادت عليها الفتاة متوسلة: شيلي على ظهري يا عمه، التفتت المرأة ثم اقبلت نحو الفتاة، قالت للفتاة : ها قد اقترب الليل يا صغيرتي فما رأيك لو تركتِ هذه الحزمة هنا ونزلتِ ضيفة علينا هذه الليلة ؟

لم تقبل الفتاة دعوة هذه المرأة بل توسلت إليها أن تساعدها في حمل حزمة الحطب على ظهرها ،وافقت المرأة ودنت من الحزمة ثم عمدت إلى رفعها وتحميلها على ظهر الفتاة لكنها في تلك الأثناء قطعت الحبل بأظافيرها الطويلة فتناثر الحطب في كل مكان .

المرأة بما فعلت وضعت الفتاة الصغيرة المسكينة أمام أمر واقع لا مفر معه من البقاء في ضيافتها ، والفتاة عندما رأت الظلام قد حلّ قبلت دعوة هذه المرأة الغريبة فسارت تتبعها إلى حيث بيتها في طرف قصي من الغابة.

قبل أن تصل إلى بيت مضيفتها لا حظت أظافر المرأة وأنيابها وذؤابتين يخالطهما الشيب من شعرها فأدركت أنها السعلية فأين المفر ؟ تلفتت فرأت نخلة بالقرب منها فتسلقت النخلة قائلة : يا نخلة أمي وأبي ، تطاولي السحاب ، فارتفعت بها النخلة عاليا بعيدا عن السعلية.

تظاهرت السعلية بالطيبة فقالت: أنا في سن جدتك يا بنتي وزوجي شيبة أيضا في سن جدك، تعالي، انزلي لا تخافي، وحتى لو بقيتِ في رأس النخلة فإلى متى؟ انزلي يا بنتي لك الأمان وعليك الأمان.

انطلت هذا الكلمات المعسولة على الفتاة المسكينة فقالت للنخلة : يا نخلة أبي وأمي، هيا انحني وطمّي ، فانحنت النخلة حتى اقتربت الفتاة من الأرض فهبطت إليها وقد اطمأنت للمرأة وسكن إليها فؤادها فواصلت السير خلفها.

ما إن وصلت المرأة إلى البيت حتى دفعت الفتاة بقوة إلى غرفة من غرف البيت ثم أغلقت الباب عليها بإحكام ، تجولت الفتاة في الغرفة فهالها ما فيها من الخيرات ، خصفة كبيرة قد ملئت لوزا ، وأخرى ملئت زبيبا ، وثالثا ملئت بأجود أنواع القسبة (القسب تمر مجفف يتفتت في الفم بسرعه) .

الخصفة وعاء كبير من الخوص يستخدم لتخزين القمح والشعير واللوز والزبيب والقسبة ، والخصفة يسمونها أيضا القفعة ، وهي لا تتواجد إلا في بيوت الموسرين الذين يمتلكون كميات كبيرة من تلك الحبوب فما الذي جعل هذه العجوز البائسة تمتلك هذه الأوعية وما تحتويه من خيرات ؟ ثم ما هذه

الضيافة العجيبة ؟! كيف تستضيفها ثم تلقي بها وحيدة في غرفة قد أوصدت بابها؟

تحركت من بين هذه الأوعية الكبيرة قطة بيضاء جميله ، فرحت الفتاة الصغيرة المسكينة بالقطة الجميلة ويبدو أن القطة الجميلة قد فرحت بالفتاة أيضا ، بادرت إلى حملها وأدنتها من صدرها فوضعت القطة نحرها على كتف الفتاة في إشارة للاطمئنان إليها.

تنقلت الفتاة بين تلك الخيرات فأكلت من قسبة وادي تربه ، ومن زبيب وادي فيق ، ومن لوز وادي الصدر، وعندما شبعت شربت ماء حتى ارتوت ثم فرشت ذراعها للقطة ونامتا سويا وقد باتتا صديقتين في مكان مثير للدهشة.

في الصباح سمعت الفتاة الصغيرة المسكينة جدالا يدور خارج الغرفة، ارهفت السمع فإذا به جدال يدور بين السعلية وزوجها السعلي ، كان يعاتبها على ترك الفتاة في غرفة مليئة بالخيرات ، لكنها ردت عليه بأن الفتاة ستكون ذبيحة للعيد القادم ولا بد من تسمينها جيدا لتغدو ذبيحة مكتنزة لحما وشحما.

أصبحت الصورة الآن واضحة تماما للفتاة الصغيرة المسكينة ، إنها مختطفة وهذه السعلية سوف تأكلها في العيد بعد أن تذبحها وتسلخها وتطبخها على نار تستعر تحت قدر كبيرة يتجمع حولها أبناء السعلية وزوجها والسعلية نفسها.

في كل ليلة من الليالي الباقيات كأنت السعلية تمر بين فترة وأخرى على هذه الغرفة لتسلم على الفتاة كما تقول ، ولما كان الظلام يلف المكان فقد

كأنت تطلب من الفتاة أن تخرج يدها لتطمئن عليها وعلى صحتها وهي في حقيقتها تريد أن تطمئن على حال ذبيحتها.

ولأن الفتاة قد عرفت مقاصد السعلية فقد استغلت ظلمة المكان وعمدت إلى يد صديقتها القطة تخرجها لتراها السعلية بدلا من يدها فتؤجل ذبحها ، وفي كل مرة كأنت السعلية تتحسس يد القطة على أنها يد الفتاة فيصدمها الحال فتردد : صدق الأول إذ قال : المصيّر مغيّر !

في ليلة العيد سمعت الفتاة خصاما بين السعلية وزوجها السعلي ، كان الزوج في قمة غضبه وكأنت الزوجة تحاول تهدئته ، هو يرى أن يوم العيد هو يوم مناسب لذبح الفتاة وأكلها ، والزوجة ترى أن الفتاة هزيلة جدا وسيكون لحمها بلا طعم ومرقتها ستكون أيضا بلا طعم .

حاولت السعلية أن تؤجل ذبح الفتاة إلى أن تسمن ، لكن السعلي كان عنيدا جدا فنجح في فرض رغبته وأذعنت السعلية لرأيه فاتفقا على ذبح الفتاة في الغد ، قال السعلي : قبل صلاة العيد ، وقالت السعلية : لا ، صل وادرج مع الجماعة وعندما تعود نذبحها .

لم تنم الفتاة ليلتها تلك، فلقد كان القلق والخوف يستبدان بها، كيف سيتم ذبحها؟ ما هو الذبح أصلا ؟ ما حجم ألم الذبح ؟ هل ستشعر بأظافرهم تنهش جسدها؟ وبأسنانهم تمزق لحمها ؟ تستعرض حياتها فتراها قد مرت سريعا ، تتذكر أبويها وأختيها ومحضن طفولتها ، تبكي بحرقة مكبوتة ثم تستعيد ثقتها فتبصر بصيصا من الأمل يلوح في الأفق .

فتحت السعلية باب الغرفة فوقع نظرها على الفتاة ولكم هالها ماهي عليه من صحة وعافية ، لقد عقدت الدهشة لسانها لكنها تغلبت على دهشتها قائلة : الدفع بي عنك يمه ! ما هذا الزين وما هذه العافية ؟ يا نشعتي

نشعتاه ! والفتاة أيضا تحاملت على الرعب الذي كان يسري في أوصالها فبادرت إلى التهنئة بالعيد وطلبت أن ترى زوج السعلية وأولادها لتهنئهم بالعيد.

قالت السعلية إن زوجها مشغول بارتداء ملابس العيد أما الأبناء فليس لهما أبناء البتة ، ثم قالت : ستكونين أنت ابنتي فهيا معي إلى فناء الدار يا صغيرتي ، سأخبز خبزة العيد ولعل لديك معرفة بالخبيز فتقدمين لي المساعدة ، هيا هيا وأخذت بيد الفتاة .

وصلتا إلى مشب الخبزة ، وشمرتا عن سواعد الجد ، قالت الفتاة : سأخدمك كثيرا يا عمتاه وسوف تكون خبزتك في هذا العيد على كل لسان ، ولو كأنت أمي هنا لجعلت الخبزة أنضر وأجمل ولكن هيهات فاين هي منا الآن ؟

الفضول والغيرة دفعا السعلية لتسأل : أمك ؟ وماذا كأنت أمك ستفعل لتصبح الخبزة أنضر وأجمل ؟ قالت الفتاة : لو كأنت أمي هنا لدهنت الصلاة بثدييها ! وبسرعة ، وقعت السعلية في الفخ فأخرجت ثدييها قائلة : أنا سأفعل ذلك ، أنظري !

لم تكد السعلية تنحني على صلاة الخبزة الممكنة في وسط المشب حتى قفزت الفتاة على ظهرها فالتصقت السعلية بجحيم المشب ، الفتاة تضغط بقوة والسعلية تصرخ : فكيني ولك ما جنب العابر ، فكيني ولك ما تحت الرحاة ، فكيني ولك ما في السفل.

لم تعبأ الفتاة بكل هذه الإغراءات ولم يضعفها لفح النار التي كأنت تلهب وجهها وكفيها فاستمرت تضغط على السعلية حتى ماتت ، وبسرعة

سحبت جثتها إلى حيث مكان نومها فأضجعتها وبسطت فوقها كساء النوم ثم عادت إلى المشب وكأن شيئا لم يكن.

جاء السعلي ليطمئن على خبزة العيد فرأى الفتاة واقفة عند المشب فعرف أنها الفريسة المنتظرة فاقترب منها وأمسك بيدها متأملا ماهي عليه من السمنة والعافية ، ثم دار حولها دورة كاملة ثم سألها : أين زوجتي ؟

قالت الفتاة : إن زوجتك مرهقة قليلا وقد نامت في فراشها لتأخذ قسطا من الراحة ، ولقد أمرتني بصنع خبزة العيد وها أنا قد جهزت المشب وقد سخنت الصلاة وسوف أطحن بعض الحب على الرحى .

قال السعلي : وهل تحسنين ذلك ؟ قالت الفتاة : نعم ، ولو كان أبي هنا لساعدني حتى يكون الطحين طحينا! . قال السعلي : وبأي شيء يساعدك أبوك ؟ قالت : ينظف صلاة الرحى بلحيته .

انحنى السعلي على الرحى ليفعل ما كان يفعله أبو الفتاة، لكن الفتاة عاجلته بدفعة قوية أسقطته في تجاويف الرحى ثم جلست على ظهره ، ومثلما حاولت السعلية أن تغريها فقد حاول السعلي أن يغريها أيضا .

قال السعلي محشرجا : فكيني ولك ما جنب العابر ، فكيني ولك ما تحت الرحاة ، فكيني ولك ما في السفل ، لكن اغراءاته تلك لم تفلح فاستمرت الفتاة في الضغط عليه حتى مات ، ثم سحبته ووضعته إلى جوار زوجته السعلية .

قبل أن تغادر الفتاة البيت قادها الفضول لمعرفة ماذا يخبئ هؤلاء الناس بجوار العابر وتحت الرحى وفي السفل ، ذهبت نحو الباب لتفحص إطاره الخشبي الذي يسمى العابر فلم تجد إلا بقايا من شعر السعلية ، ذهبت إلى الرحى ونظرت أسفل منها فلم تجد إلا بقايا من حبوب القمح المجروش .

فتحت باب السفل ، كان السفل مظلما وموحشا ، تلفتت فوجدت بالقرب منها سراجا وقداحة ، أسرجت الفتاة السراج وعندما أضاء المكان رأت سقفا أسود وحيطأنا سوداء وعناكب تتدلى من هنا وهناك وبقايا تبن تملأ الأرضيات والزوايا .

توغلت الفتاة في أعماق السفل فتراءى لها كأنما هناك أجساد آدمية تتدلى من السقف ، اقتربت ورفعت السراج نحو الأعلى لتعقد لسانها الدهشة ، اقتربت أكثر يا لهول المنظر ، أجساد معلقة بالأرجل تتدلى من فوق ، أجساد رجال ونساء على قيد الحياة ولكن في حالة يرثى لها.

عملت الفتاة جاهدة لإنقاذ هؤلاء الأسرى فاستطاعت أن تنزل واحدة من الفتيات ثم ثانية وثالثة ثم تعاونت الثلاث في انقاذ البقية الباقية حتى أصبح الجميع أحرارا ، ورغم حالة البؤس والعناء التي كأنت تعتريهم جميعا إلا فرحة الخلاص من سجن السعلية وزوجها السعلي كأنت أقوى فتعاون الجميع في الخروج من بيت السعلية ثم تعاونوا في مغادرة الغابة التي تحيط ببيت السعلية حتى عاد كل واحد منهم إلى بيته .

جَمْ بِحْ ، جَمْ بِحْ ، جَلا جِل

كأنت هناك فتاة نشيطة تحب العمل وتخلص له فتنجح فيه ، لكنها كأنت تعاني من عيب بسيط لكن عواقبه خطيرة في بعض الأحيان ، كأنت تتحدث بصوت عال في معظم الأحيان، ولكم نصحها من حولها أن تغض الصوت لكنها كأنت تتجاهل تلك النصائح ، ولو قبلت النصيحة مرة فإنها تتجاوزها مرات عديدة .

خلال عودتها من بئر القرية والقربة على ظهرها قالت لرفيقتها : لا تنسي موعدنا الليلة ، نريد أن نبكر في ساعات الفجر الأولى للاحتطاب من الغابة قبل أن ترتفع الشمس فتحمى جمرة النهار.

الصَّبِيّة قالت هذا الكلام بصوت عال فوقع كلامها في أذن السعلية التي كأنت تختبئ بالقرب من طريقهن ، ولقد وجدت السعلية أن الفرصة مؤاتيه لتحتال في خطف الصَّبِيّة ولذلك ضحكت ضحكة شر مكبوتة وأضمرت خطة ما .

الصَّبِيّة وصلت إلى دارها، وجهزت حبل الاحتطاب وقبعة الخوص "الهطفة " وحوكتها ، ثم بادرت إلى إعداد العشاء لها ولعائلتها ثم صلت ونامت مبكرا لتستيقظ مبكرا وترافق جارتها إلى الغابة .

أما السعلية الشريرة فقد أنتظرت حتى أنتصف الليل ثم انطلقت صوب بيت الصَّبِيّة ، توقفت في فناء البيت قليلا ثم قلدت صوت الديك ، تحركت نحو باب الدار ثم قرعته بلطف، كررت الطرق حتى سمعتها الصَّبِيّة من داخل البيت.

الصَّبِيّة سمعت الطرق فقالت من؟ أجابت السعلية مقلدة صوت جارة الصَّبِيّة :هيا انهضي يا جارتي ها هي ساعات الفجر الأولى وقد أعلنها الديك ، خذي الحبل والهطفة وهيا قبل أن ترتفع الشمس فتحمى جمرة النهار.

خجلت الصَّبِيّة من نفسها فالعادة أن توقظ الآخرين لا أن يبادروا هم إلى إيقاظها، لذلك قالت : نعم ها أندا قادمة إليك ، ثم سارعت إلى جمع حاجياتها وفتحت الباب ثم خرجت وأغلقته بالضبة والمفتاح من ورائها.

لم تتعرف الصَّبِيّة على السعلية فالظلام كان حالكا ، لكنها عندما وضعت كفها بكفها مصافحة وجدت فيها خشونة لم تعهدها في كف جارتها فأوجست منها خيفة ، وعندما حأنت منها التفاتة نحو وجهها أقشعر منها جلدها ، لقد ظهرت ملامحها المخيفة واضحة تحت ضوء النجوم ، ولم يعد هناك شكّ في الأمر.

أخفت الصَّبِيّة خوفها واضطرابها وأيقنت أنها وجبة افطار دسمة للسعلية الشريرة ما لم تتخلص منها بذكاء، وأيقنت أن أول خطوات الخلاص تبدأ من أعماق نفس هادئة مطمئنة فالعقل لا يعمل تحت مطارق القلق والخوف أبدا.

سارتا في خطوات جادة مجدة حتى وصلتا أطراف الغابة ، السعلية سعيدة بما تحقق لها حتى تلك اللحظة ، الصَّبِيّة متفائلة بقدرتها على الإفلات من قبضتها ، لذلك اقترحت على السعلية اقتراحا قبلته فورا ، الصَّبِيّة ترى في اقتراحها ذلك أول خطوات الخلاص ، و السعلية رأت فيه أول خطوات خطف الصَّبِيّة.

قالت الصَّبِيّة للسعلية متظاهرة بعدم اكتشافها والتعرف على حقيقتها: وصلنا الغابة ولا يزال الوقت مبكرا فما رأيك يا رفيقتي الغالية لو قضينا الوقت نجمبح حتى يسفر النهار ونستبين الشار من الجار ؟ قالت السعلية : حسنا.

الجمبحة هي لعبة الفتيات النشيطات ممن يمتلكن أجساما رشيقة مشدودة، وفيها تمرين تلقائي لشد الجسم أو لاختبار لياقته بين فترة وأخرى وفيها تجلس الفتاة القرفصاء ثم تتحرك إلى الأمام قفزا على مشط القدم وكلما علت كأنت أكثر رشاقة وكلما تقدمت كأنت أكثر تماسكا، وكلما رددت الزّمَلة (الأهزوجة المصاحبة) كأنت أكثر صبرا وتحملا.

قبلت السعلية ذلك لأنها تعتقد أن الصَّبِيّة سوف تكون مهدودة القوى في نهاية المطاف فيسهل التعارك معها ومن ثم خطفها ، ولذلك بادرت إلى جلوس القرفصاء استعجالا لبدء اللعبة أما الصَّبِيّة فقد انهمكت في التذكير بقوانين اللعبة وشروطها ووصف مراحلها المختلفة.

قالت الصَّبِيّة للسعلية على أنها رفيقة دربها وليست سعلية :سنجلس القرفصاء ظهرا لظهر ، وسوف تجمبح كل واحدة منا تلقاء وجهها حتى تكمل ثلاثة محاريف (ثلاثة أشطر) من الزّمَلة (الأهزوجة المصاحبة) ثم نعود أدراجنا نردد المحاريف نفسها حتى نلتقي وجها لوجه.

واصلت الصَّبِيّة شرحها قائلة : ثم نعيد الكرة فننطلق ثانية ظهرا لظهر ، لكننا سنغني في هذه المرة سبعة محاريف من الزّمَلة (الأهزوجة المصاحبة) ثم نعود بها حتى نلتقى ، ثم نكرر ما كان ولكن بإحدى عشر محرافا وهكذا حتى يطلع النهار، أو تستسلم واحدة منا .

كأنت الصَّبِيّة تهدف إلى لحظة تكون المسافة بينها وبين السعلية على أبعد ما تكون ومن ثم تطلق ساقيها للريح ، وكأنت السعلية تهدف إلى لحظة تكون فيها الصَّبِيّة على أضعف ما تكون ومن ثم تغرس أظافرها في كتفها وأنيابها في عنقها وتسحبها إلى وكرها و تولمها لأهل بيتها.

بدأ اللعب وجلست كل منهن القرفصاء ظهرا لظهر ثم انطلقن، كل واحدة منهن تلقاء وجهها ،انطلقن بثلاثة محاريف من الأهزوجة : جم بح جم بح جلاجل ، من مهرة تعاجل، ترعى جميم باجل، ثم عادتا بالمحاريف الثلاثة ذاتها: جم بح جم بح جلاجل، من مهرة تعاجل ، ترعى جميم باجل.

التقين وجها لوجه ثم استدرن ظهرا لظهر كي يبدأن المرحلة الثانية ، مرحلة المحاريف السبعة والمسافة الأطول : جم بح جم بح جلاجل ، من مهرة تعاجل ، ترعى جميماً باجل ، أخوالي العطية ، ذباحة الطليّة ، وكلبهم في الوادي ، يطارد الحدادي ، ثم عدن أدراجهن بالمحاريف السبعة ذاتها : جم بح جم بح جلاجل ، من مهرة تعاجل، ترعى جميماً باجل، ثم عادتا بالأشطر الثلاثة ذاتها: جم بح جم بح جلاجل، من مهرة تعاجل ، ترعى جميم باجل.

التقين وجها لوجه ثم استدرن ظهرا لظهر كي يبدأن المرحلة الثالثة ، مرحلة المحاريف الإحدى عشر والمسافة الأكثر طولا : جم بح جم بح جلاجل ، من مهرة تعاجل ، ترعى جميماً باجل ، أخوالي العطية ، ذباحة الطليّة ، وكلبهم في الوادي ، يطارد الحدادي ، ، يا خجلي من امي ، ومن بنات عمي ، نثرت كحلهنه ، على خدودهنه . ثم عدن أدراجهن بالمحاريف الإحدى عشر ذاتها : جم بح جم بح جلاجل ، من مهرة تعاجل ، ترعى جميماً باجل ، ثم عادتا بالمحاريف الثلاثة ذاتها: جم بح جم بح جلاجل، من مهرة تعاجل ، ترعى جميم باجل ، يا خجلي من امي ، ومن بنات عمي ، نثرت كحلهنه ، على خدودهنه.

التقين وجها لوجه ثم استدرن ظهرا لظهر كي يبدأن المرحلة الرابعة ، مرحلة الأشطر الأربعة عشر والمسافة الأطول المناسبة للفرار : جم بح جم بح جلاجل ، من مهرة تعاجل ، ترعى جميماً باجل ، أخوالي العطية ، ذباحة

الطليّة ، وكلبهم في الوادي ، يطارد الحدادي ، ، يا خجلي من امي ، ومن بنات عمي ، نثرت كحلهنه ، على خدودهنه ، تُبُّق تُبُّق يا رعيان ، شريت الدف بحصان ، واربعميه من الضان ، وهنا التفت الصَّبِيّة فإذا بالمسافة بينها وبين السعلية قد باتت آمنة فأطلقت ساقيها للريح باتجاه قريتها.

لا حظت السعلية اختفاء صوت الصَّبِيّة فالتفتت نحوها فإذا بها قد لاذت بالفرار، لحقت بها وقد أدركت أن الصَّبِيّة كأنت تخطط للهرب منذ البداية ، ظلت السعلية تجري وتجري حتى بلغت أكمة تشرف على قرية الصَّبِيّة من عل فرأت أن الصَّبِيّة على وشك بلوغ القرية ولابد من الإمساك بها قبل ذلك وإلا فقد فوتت على نفسها صيدا سمينا ثمينا.

زادت السعلية من سرعتها فاقتربت كثيرا من الصَّبِيّة ، لكن الصَّبِيّة وصلت إلى بيت فقيه القرية وهو أول بيت يواجه القادم من الغابة فدفعت بابه فانفتح وبسرعة أوصدته في وجه السعلية .

ارتطمت السعلية بالباب فغرزت فيه أنيابها الحادة ، ثم حاولت أنتزاعها منه لكنها انخلعت من جذورها وبقيت في الباب حتى اليوم كما يقسم الرواة ، أما الصبيّة فقد أحكمت إغلاق الباب وظلت خلفه تستمع إلى السعلية وهي تسعلل قائلة : يا غَبْن ضَرْسِي على شَحْمَة اِذْنِك ، يا غَبْن ضَرْسِي على شَحْمَة اِذْنِك.

السيَّر الشّعبية

غزوة رأس الغول

بسم الله المعز المذل والصلاة على خيرته من خيار خلقه ، وبعد : فهذه القصة العجيبة التي كأنت بين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبين عدو الله ورسوله ، مخارق بن شهاب الخثعمي وأولها ، قال الراوي : يا سادة الكرام ، يا أفاضل الأنام ، بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث عليا وخالدا في خلق كثير من الصحابة إلى اليمن، فوجد الإمام ومن معه ما وجدوا، و لقيوا ما لقيوا، من عناء الطريق ومن وعثاء السفر، ومن حروب ووقائع تشيب لها الغرّان، في شعاب السراة المنكرة، وجبالها المعتكرة، وكانوا كلما أخضع المسلمين قوما وذللوهم للواحد القهار، يفر منهم نفر فيلجأون إلى ملك جبار عنيد، سكن مهمة البلس العتيد، واتخذ صنما من الذهب والزبرجد والياقوت، سماه فارس، ووضع على يمينه الجنة وعلى يساره الخشيب، إذا شب ناره شيفت من البعيد.

قال الراوي: فلما قرب المسلمون من مكان هذا الملك، عسكروا في مكان أمين حصين، وبعد أن رزّوا الخيام ورفعوا الأعلام، واطمأن على المسلمين الإمام، استدعى الزبير وشاوره أن ينتدبه رسولا من المسلمين، إلى عدو الله اللعين، فيذكره بوالده الصالح شهاب، ويعرفه بما جاء به الكتاب، المنزل من رب الأرباب، لعله يسلم ويستدل الصواب، فيسلم بإسلامه المال والرقاب، قال: فخرج الزبير من وقته وساعته، يجذ السير ، حتى بلغ مأربه ، فلما دخل العسكر أوقفه الحراس، فلما ركدوا مراده سلموه لواحد منهم فسلمه لحاجب الملك، فلما دخل على الملك سلم عليه وخاطبه كما تخاطب الملوك، فلما عرض عليه الإسلام تنمرد اللعين وتشدد، ثم أرعد وأزبد ، وصرخ حتى

اجتمع كل من حوله، وقال: خذوا هذا التمهمي فغلّوه، وبسلسال الحديد قيدوه، وسيعرف هؤلاء الناس ردي عندما أهجدهم في ثلث أخير من الليل. قال: فتكاثر الجند على الزبير وهو رسول، والجنود لا تقرب الرسل من عرب وعجم، فأداروا كتافه بعد أن أوسعوه ضربا، ورموا به في أقصى المعسكر.

قال الراوي: هذا ما جرى للزبير رضي الله عنه، وما كان من عدو الله مخارق بن شهاب، أما ما كان من أمر المسلمين ، فإنهم كانوا قد رتبوا لكل حال حاله، ولكل مقام مقاله، فلم تنم أعينهم حتى أقاموا حرسا عليهم، وكلاية في القمم المشرفة عليهم، وتوازعوا مواقعهم في جناب الوادي من اليمين واليسار، فلما أبصر الكلاية مشاعل الأعداء نزلوا، فأخبروا الحراس، فتسارع الحراس وأيقظوا الناس، فسنّدوا جناب الوادي، وخيامهم مكانها في بطن الوادي، خالية من السلاح والرجال، ورتبهم الإمام وأوصاهم بترك العدو يتوغل في الوادي، فلما توغل جيش الكفر بطن الوادي نزل عليهم المسلمين ، فأوقعوا فيهم السيف، فلا تسمع إلا جز الرقاب، وصرخات الألم والعذاب، حتى أنتهى جيش الشرك بكامله، لم ينج منهم إلا من علم بما جرى لهم، ولما ظهر الصباح، بان النهار ولاح، فإذا بالوادي قد امتلأ بالجثث والأرياح، فعدهم بعض المسلمين فوجدوهم زهاء عشرة الآف، ولم يقتل من المسلمين أحد، فخر الإمام لله ساجدا، وخر معه المسلمون سجدا، ثم دعاهم لترك المكان، فشدوا شديدهم وتركوه على ما كان، وفي الطريق اقترب الإمام من عمرو بن أمية الضمري وقال له: انطلق يا عمرو، فما أظن الزبير إلا يعذب الآن في الأسر، قال عمرو: فعمدت إلى ثياب كأنت معي فلبستها، ثم اكتحلت وتطيبت، وخرجت في وضح النهار، حتى توغلت في الديار، فلقيت رجل منهم عليه سمت الوقار، فلما سلمت عليه سألني من أين يا عربي ؟ قلت : من بني

هلال، وقد مسني الضر فجئت التمس الشفاء من إلهكم فارس، قال: مرحبا بك يا فتى بني عامر، أنا الهجهاج الخثعمي، كنت مع العسكر وجئت هنا لبعض حاجتي، فهيّك معي، نذهب للعسكر وسنحتال حتى نجد من يأخذك للرب فارس. قال عمرو: ثم سرنا مجدين من ساعتنا ولم نزد عن الساعة حتى وصلنا عسكر الملك فوجدناهم يمدون الطعام، فلما وضعوا الطعام دعوني بعد أن أشهرني الهجهاج بما عرف مني، فتقدمت وأكلت بحسب الكفاية والنهاية فقالوا تريد المشروب؟ قلت لا أقدر عليه، حسبي ما أنا عليه من الضر والتعسير والجوع، ثم جعلت أسمعهم الأشعار والأخبار، عن وقايع العرب وسير السادات والملوك، فتعجبوا مني ومن حديثي وزادوا في إكرامي، رغبة وفرحا، فجعلت أنظر يمينا وشمالا أطلب الزبير، فنظرت إليه وإذا هو مقيد في الحديد، وفي عنقه سلسلة فيها طوق عظيم ، فسمعته يبكي فلما سمعت بكاءه قلت: اللهم سهل لي خلاصه، ثم تناومت بين القوم فقالوا: ما تنام يا شيخ؟ قلت نعم، قال ولم يزل القوم في الشراب حتى سكروا وناموا مثل النعاج، قال عمرو: فقمت وقد مضى من الليل نصفه فوصلت إلى النار وطفيتها، ثم قلبت عليها التراب، فأظلم المكان من شدة العتام، والعبيد نيام، فجعلت أحبي على بطني حتى أتيت الزبير، فسلمت عليه، فقال من أنت؟ فقلت: أنا عمرو. فقام قايما فقال: يا عمر، والله ما أقدر على الحركة جملة كافة، فجعلت التمس السلسلة وليس فيها حيلة، وفي عنقه طوق عظيم وثيق، فعالجته وخشيت يحسوا بي العبيد، فجعلت أعبر يدي في السلسلة، وإذا قد وقعت في يدي حلقة ضعيفة فعالجتها وكسرتها، ولساني لا يفتر عن ذكر الله تعإلى عز وجل، وبقي في عنق الزبير مقدار ذراع، فقلت له: الآن قم، فلم يقدر على القيام، وقال: يا عمرو اصبر حتى يمتد ساقي، فقلت له: هذا قول من يكون مثلك مع فضلك

وعقلك؟ قال عمرو: فوثبت إلى سيف هناك ورفعته في العبيد، فقتلت منهم ثلاثة عشر عبدا، وقلت له قم الآن فإني قتلت ثلاثة عشر عبدا، فلما سمع الكلام جعل يركد ويرتعد فلما سمعت ذلك وعاينت حالته، حملته على عنقي، وجعلت أعدو به ما شاء الله، ورجلاه تسحب على الأرض، فقلت ارفع رجليك واحذر ان يضرب ساقيك حجر، قال عمرو: فعديت به إلى مغارة هناك للرعاء، يأوون إليها في أيام الصيف والشتاء، فقلت له اجلس هاهنا حتى آتيك بجواد تركبه، فرجعت إلى البيوت والمضارب فنظرت فرأيت كل القوم مشغولين بنفوسهم، فقصدت خيل عدو الله، فحللت جواد أدهم، كأنه غراب أسجم، فقصدت به إلى الزبير فقال:ما هذا؟ فقلت له: قم الآن واركب وهذا سيف قاطع تقلد به، وكان عمرو لما أخذ الجواد نظر إلى سيف هناك معلق على باب خيمة وقوس وسهام فأخذتهم وأتيت بهم للزبير وقلت : قم الآن، قال فرأيته قد انبسط ووجد الراحة قال الزبير: الآن يا عمرو طبت وما عدت أبالي بالخيل، قلّت أو كثرت، ألا اعلم يا عمرو أنني جايع ، فقلت له: اجلس مكانك أنا أجيب لك طعام تاكل، قال عدت إلى الوادي فاتيت بعض المضارب وقلت أنا رجل غريب وضعيف وفقير وعابر سبيل فهل عندكم شي تطعموني، فإني قد مسني الجوع فقالوا اجلس يا شيخ مكانك حتى ناتيك بالطعام تأكل، فآتوني بخبز ولحم فأتيت به للزبير فأكل وشبع فقلت له :الان قم ، فبينما نحن كذلك وإذا الرايات قد أقبلت وضربت البوقات وأقبلت المشاعل وإذا بعدو الله الملك قد أقبل وأتى ووقف بين قدمي الصنم يشكو له ما قد جرى عليه، فوقع في الوادي النفير فنفرت إليه السادات وأشعلت القناديل والمشاعل والشمع، وأظهرت مجامر الذهب والفضة وبخروا بالمسك والعنبر، وانقلب ذاك الوادي بحضور الملك عند الصنم، قال عمرو: فقلت للزبير

الزم مكانك فقد عولت أن أسرق الصنم، وأنا لا أعلم أن عبدالله ابن أنس دخل الوادي قال: فلما مضيت وأتيت إلى القبة التي فيها الصنم فإذا حيطانها ملبسة بالذهب والفضة، وقناديل الذهب والبلور، وسترها الديباج الرومي والخدم والعبيد، فنظرت فرأيت الصنم مثل الطفل الصغير وهو من الذهب الأحمر، مرصع بالدر والجواهر وهو على كرسي من الذهب الأحمر وعيناه ياقوتتان ونورهما يغلب نور الشمع وعلى رأسه تاج مرصع بالجوهر والدر فقلت في نفسي طوبى لمن ظفر الليلة بهذا الصنم قال: فلما دخل عدو الله إلى الصنم خر له ساجدا من دون الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وخرت له العرب ساجدين، ثم إن الملك رفع رأسه وهو يقول: إلهي قد عظمت المصيبة وانقطعت الحيلة، قتلت الرجال وتضعضع الحال، وأنت غافل عني، فدخل الشيطان في جوف الصنم وتزعزع وتنحنح وتكلم وقال: يا مخارق من دعاني والتجأ لي نصرته وإني أنصرك وأبدد شمل أعدائك، قال: ففرح الملك وأمر بالذبايح فذبحت من الأغنام والإبل، وقربها قربان للصنم وقسم اللحم للفقراء والمساكين، ثم مضى إلى خيمته وأمر بعض قومه بالذهاب إلى الحصن فيجيبوا السلاح ليفرقه على الرجال، ثم أحضر صناديق مملؤة ذهب وفضة، كلها فرقها على الرجال، وأغنى بها خلق كثير، وفتح أسفاط الرايات من الديباج ومن الذهب الأحمر، ثم إن الملك عزم أن يأخذ الصنم ويرفعه للناس وهم يقاتلون بين يديه، ويجلسه على كرسي من الذهب الأحمر لينصرهم، ثم أمر منادٍ في القبائل والعشاير ألا من غاب عن الحرب فرزقه وماله ودمه للملك، وهذا إلهكم معكم يراكم وينظر إليكم وإلى أفعالكم، فلما سمعوا الناس ماجوا بعضهم في بعض وارتج الوادي بسكانه وماج بقاطنيه ، ثم إن الملك أمر حاجبيه أن يأتيه الزبير ليضرب عنقه بين الصفين، ويصلبه بعد القتل على جذع من النخل

، ويرشقوه بالسمهم ، فعند ذلك انطلق حاجبه يريد الزبير فلم يجد للزبير خبر، قال عمرو: فوقفت إلى حين طفوا الشمع والقناديل وناموا مثل النعاج فأقبلت أتخطى رقاب الخدام وهم نيام حتى دخلت القبة ورفعت الستر فتعلق بي رجل وقال : كيف تدخل على الرب بغير إذنه ؟ فقلت : أنا رجل ضعيف ومسكين، وقد أتيت الرب فارس أشكو إليه القلة وما أنا فيه من الفقر والصعلكة ، وأسأله أن يرفع ضري فعساه يفرج عني ، فقال ادخل واسأله ، فدخلت فطفت يمينا وشمالا فلم أر الصنم ولا أجده فقلت في نفسي هاهنا كان ، أي شيء اصابه؟ ثم طفت عليه ثانيا وثالثا فلم أجده فقلت في نفسي: الشيطان خطفه فخرجت مسرعا خوفا من القتل وأنا متعجب بما كان منه، قال عمرو وكان عبدالله بن أنس وصل من وقت خروج الملك من عند الصنم دخل وأخذه وتوجه نحو العسكر وهو فرحان، وأنا لا أعلم بما صنع عبدالله، وإذا هو قد سرق إلههم فارس، فخرجت فرأيت الوادي قد ارتج بالناس وذلك أن صاحب الملك قد أتى في طلب الزبير ليحضره للملك ليقتله فلم يجده ووجد العبيد سكارى، فقال لمن كان معه أيقظ هؤلاء الكلاب، أراهم نيام والأسير قد هرب من بين أيديهم، فضربوهم ضربا شديدا وقال لهم يا ويلكم وأين الأسير؟ فقاموا وهم فزعين وقد رجفت قلوبهم، فنظروا فلم يجدوا أحدا والباقي الذي قتلهم عمرو مكانهم راقدين، فقال الحاجب أما ترون إلى الوادي قد ارتهج هذه الليلة وهؤلاء نيام؟ فجعلوا يضربونهم ولا فيهم من يجيب وإنهم قتلى، والزبير قد هرب، والعبيد الذين كانوا موكلين به قد قتل منهم ثلاثة عشر رجل، فعظم على الحاجب ومضى إلى الملك فأعلمه، فعظمت على الملك المصيبة، وأمر بضرب أعناق الباقي، ولطم على رأسه، واغتم الملك وضاق صدره فقال لقومه: وحق فارس ما فعله إلا علي بن أبي طالب لأنه ذو مكر

وحيل ثم نادى: سرجوا الخيل ، وصاح بالجيوش أن يركبوا، قال ومضى الملك والعبيد معه إلى عند ربه فارس وأشعلوا القناديل والشمع وأرخوا الستور، فنظر أحدهم فلم ير الصنم مكانه فشخص ببصره متعجبا وقال يا ويلكم وأين الرب فارس، فنظروا فلم يروه فخرج كل واحد منهم هاربا على وجهه خوفا من القتل، ثم إن الملك أقبل في خواص عسكره والمشاعل بين يديه، وكان من عادته إذا قرب من القبة يستقبلونه الرجال والعبيد ويخرون له سجدا إلا هذه المرة لم ير الملك أحدا فتعجب من ذلك وأنكره، ثم إنه دخل القبة وخر ساجدا ثم رفع راسه فلم ير الصنم ثم قال يا ويلكم أين الرب فارس؟ فنظروا فلم يرونه فبقي خايف متحير ثم أقبل على أصحابه وخواصه وقومه وقال يا ويلكم وأين الرب فارس؟ فقالوا لا نعلم أيها الملك فقال ادعوا خدام القبة نسألهم عنه فطلبوهم فلم يروا منهم أحدا ، لأنهم انهزموا من الخوف على أنفسهم فضرب الملك بيد على يد ومزق أثوابه وحثى التراب على رأسه ونتف لحيته ونادى : واعجباه ينفك أسيري ويسرق إلهي ؟ لقد أصبحنا حديثا في العرب ، قال : فدخل عليه الوزير وكان قد أسلم منذ زمن دون علم أحد ، وقد علم أن عبدالله سرقه وقال: أيها الملك لا تحزن لفقد إلهك فارس فتبارك أن يسرقه سارق أو يطرقه طارق، ولكنه وعدنا بالنصر على المسلمين وأظنه قد سار إلى معسكرهم ليدبر أمر نصرنا عليهم ،قال فلما سمع الملك كلام وزيره صدقه وطابت نفسه وقال: وحق فارس لقد أتيت بالصواب ونطقت بأحسن جواب.

قال الراوي : أما عمرو فإنه نظر إلى الوادي قد ارتهج بالأبطال والعبيد ، وتصارخت الفرسان وجالت الشجعان وصاح الملك بهم صيحة عظيمة فطلبوا روس الجبال وبطون الأودية قال عمرو فقلت للزبير قم الآن واركب جوادك فقد ارتهج الوادي وماجت الأبطال فقام الزبير وركب جواده وقال يا عمرو ليتك

سرقت لك فرس تركبه فقال عمرو : ساقي خير من خيار الخيل، قال : فسرنا مجدين في موضع لا تصله النمل ، وكنا إذا وصلنا إلى وعر لا تسلكه الفرس قام الزبير بحمل الفرس ، فسرنا في جبل وعر وبرية قفرا حتى وصلنا إلى أرض مستوية وذلك بعد جهد الجهيد ثم قال : سر الآن فسرنا حتى طلعت الشمس فإذا بشخص يلوح بين أيدينا ، قلنا نقتله قبل أن يلوح بالصوت علينا فيفضحنا ، ولما شددنا السير وأدركناه عرفنا وعرفناه فإذا هو عبد الله بن أنس ، فدنا منه الزبير وقبل يديه ، وأعلمه بفزعنا منه فقال وأنا كان فزعي منكم أشد ، وكان على ظهره زعبة ، فقلنا ما في زعبتك هذه ؟ قال : هذا فارس ، إله عدو الله رأس الغول ، فقلنا وحق المصطفى كيف عملت به ؟ قال : دخلت عليهم في زي طبيب ، فداويت المرضى والجرحى فقربوني وأعطوني ، ثم احتلت على الصنم في زي رجل منهم وقد حملت زعبة على ظهري وفيها رجل جمل فأتيت إلى خادم القبة الذي فيها الصنم، وقلت يا قوم ، في زعبتي هذه ولدي المريض الذي أصابه جرح في قتال المسلمين وقد حملته على عاتقي وجئت به إلى فارس فلعله يرحم كبري ويرق لشيبتي ويشفي ولدي فلما سمعوا كلامي قالوا ادخل يا شيخ فدخلت وجعلت أبكي بكاء شديدا ثم أخذت الصنم ووضعته في الزعبة وأخرجت رجل الجمل التي كأنت في الزعبة ووضعتها مكان الصنم ، وفي مخرجي قال العبيد: ما فعلت؟ قد وجد ولدك في نفسه الراحة وأبراه فارس؟ فقلت نعم ثم خرجت ومعي الصنم وسلكت الأودية والشعاب والرمال طول الليل حتى وصلت إلى هاهنا وأما ما كان من رأس الغول فإنه قد أنفذ من حزته وساعته إلى عسكره، وقال لهم : إلهكم فهل جاء إلى عندكم ؟ قالوا ما أتى ولا رأيناه ، فضاق ودعا برجل من السادات اسمه كنانة بن الأشمط ويلقب بمرارة الموت ، وكان بطلا عظيما شديد البأس قوي المراس تضرب به الأمثال ،

فقال له الملك : خذ ألف فارس من أولاد عمك والحق الطبيب ، وإن ظفرت به لا تقتله بل جئني به حتى أسحق عظامه سحقا وأشرب دمه نهلا ، فقال كنانة : سمعا وطاعة أيها الملك ، ثم ركب جواده وأخذ معه ألف فارس وسار حتى توسط البرية، قال عمرو : فبينما نحن نحدث بعضنا بعضا منحدرين في الجبل اذ نظرنا إلى غبرة قد طلعت علينا وتحتها ألف فارس تلمع أسنتهم ، فنظرونا وحملوا علينا حملة رجل واحد ووقعت العين على العين وأخذتنا الزعقات ، فهز الزبير جواده وسبق ، وعديت أنا وعبد الله مثل الريح ، والخيل في طلبنا تجري ، حتى قربوا منا ، فعطف الفرس وحمل عليهم وطعن طعنا أحر من الجمر ، وحمل عليهم كالأسد الغضبان ، فتلقاه رجل له لحية عظيمة فضربه الزبير فقتله ثم تلقاه آخر فألحقه بصاحبه، ثم صعدنا الجبل ووضعنا السمهم بين أيدينا وجعلنا نرشقهم رشقا فأهلكنا منهم خمسين فارس فصاح بهم كنانة يا أصحاب هذا الفرار ، و يا أصحاب العار ، هذا وهم ثلاثة فكيف لو كنتم بجيش المسلمين وأبطاله وصناديده ؟ قال بعضهم :لو تدري من هذا الشاب ؟ فقال كنانة :من ؟ قال : هذا فارس بني أسد الداهية الدهياء والمصيبة العظمى ، عمرو بن أمية الضمري ، ومعه الشيخ الذي أرهج البلاد وأذل الأعداء الشداد عبد الله بن أنس الجهني . فلما سمع كنانة وصفهم قال : احملوا عليهم بأجمعكم ، قال عمرو : فحملوا علينا حملة واحدة و أقلبوا الأعنة وقوموا الأسنة ، وتصارخوا و تزاعقوا زعيق الجان في ملاعبهم ، قال عمرو للزبير : أحمل عليهم وارجع وراك واركد وامنع عن نفسك وهكذا حتى نقترب من جيش المسلمين ، قال الزبير : ياعمرو ، اذهب أنت الآن للجيش واطلب المدد ونحن سنشاغلهم ونمنعهم عن أنفسنا ولن ينالنا منهم شر بمشيئة الله ، قال عمرو : فألقيت رجلي للريح واستقبلت البر الفسيح وقد جمعت أذيالي في دور منطقتي

، فنظروا الكفار إلي ، ثم قال كنانة : يا شيخ السوء ما تريد أن تصنع ؟ قلت أريك الساعة ، ثم عديت حتى ضربت كعبي رأس أذني ، وجمزت الفلاة جمزا فلم يلحقوا مني إلا الغبار ، فقال كنانة لقومه : ما هذا إلا شيطان أو عفريت من الجان ، دعوه وامسكوا برفيقيه ، فحملوا على الزبير وضيقوا عليه ، وأحاطوا به من كل جانب ومكان ، فرفع طرفه إلى السماء وقال : إلهي وأنت جاهي ، تعلم ما أنا فيه من الشدة والغم ، قال عبد الله : فجعلت أرقب العسكر فبينما نحن في أضيق الحال وشدة البلا وإذا نحن بفارس قد أقبل من صدر البرية يطحن الصخور بعقبيه ، قال عبد الله : فقلت الله أكبر ألله أكبر ، جاء النصر وانكشف الضر ، ثم دنا منا ذلك الفارس وصرخ صرخة ارتج لها الوادي لشدتها والجبال والتلال ثم حمل على القوم فردهم على أعقابهم وقتل منهم ماية فارس ، فاجتمعوا على بعضهم وقالوا من هذا الفارس الشديد والبطل الصنديد ، فقالوا لا نعلم ، ثم انحدر عبد الله من الجبل فوجد الإمام علي وعمرو ، ثم برز فارس من الكفار نحو الإمام وقال يا فتى من أنت ؟ فقال أنا كريم النسب ، أنا رفيع الحسب ، المعروف لدى العرب ، المشهور عند ذوي الرتب ، أنا ليث العجايب علي ابن أبي طالب ، فلما سمع كلامه ولى راجعا ، فبرز رجل يقال له عرفجة بن دارم ، فزعق بجواده وحماه بصوته وتقدم نحو الإمام ، فلما رآه الإمام ثنى رجله على عرف الفرس ولم يلتفت إليه ، فزرق الإمام بطعنة ردها الإمام بالدرقة ورجله لا تزال على عرف الفرس، ثم ثنى بطعنة أخرى فردها الإمام أيضا بالدرقة ورجله باقية على عرف الفرس ، ثم عاد ثالثة فمسك الإمام رمحه فكسره فجرد عدو الله سيفه وجعل يتراشق بالضربات والإمام يرد ضرباته ورجله كما ذكرنا على عرف الفرس ولا يلتفت إليه ، فلما طال عليه الأمر اجتمع الإمام في سرجه ووثب إليه ومسك على حلقه فخنقه

فوقع ميتا ، فأقبل كنانة ابن الأشمط وقال : من لهذا الفارس الشديد ؟ فقال غلامه الحارث أنا . فبرز وصال وجال والإمام لا يتحرك ، وهو يحمل عليه ويتراشق بالضربات ، ثم إن الإمام حمل عليه واغتاض منه وقبض على مراق بطنه ثم حذفه في الهواء فوقع تحت أقدام ربعه ميتا ، هنا قال كنانة لقومه : كفوا عن المبارزة حتى لا يفني فرسانكم واحملوا عليه جماعة ، قال شداد بن المهلب أنا أحد الحاملين عليه فمن معي ، فتجمعوا خمسة رجال وحملوا على الإمام ، فعند ذلك حرك الإمام جواده وقبض فارسين بكل يد فارس وحذف بهما فارسين فقتل الأربعة وانهزم الآخر فحذفه بحجر على مضاغته فخر ميتا .

قال الراوي : لما رأى كنانة ما كان قال : دعوه لي واكفوني شر رفاقه ، ثم حمل على الإمام وحمل عليه الإمام ، وجالا طويلا واعتركا مليا حتى جرى منهما العرق وازورت نحوهما الحدق وعلا عليهما الغبار حتى غابا عن الانظار، كلت الساعدان ورجف الجوادان، ثم افترقا عن سلامة ، ثم عاد الإمام وحمل عليه وصاح به صيحته العظيمة وطعنه في صدره ورفعه على سنان رمحه ، فلما أيقن قوم كنانة بمقتل سيدهم ولوا هاربين ، ثم إن عبد الله بن أنس أخرج الصنم فرآه الإمام فهلل وكبر وقال : إن الباطل كان زهوقا ، إن الباطل كان زهوقا .

قال الراوي : هذا ما كان من أمر خلاص الزبير ، أما ما كان من أمر دعامة ابن رأس الغول فإنه عبأ عسكر أبيه ميمنة وميسرة ، وقلب وجناحين ، وعبأ الإمام عساكره كذلك ميمنة وميسرة وقلب وجناحين ، فلما اصطفت الصفوف ، برز من المشركين جنادل ابن راس الغول وكان من الصناديد الأشداء ، يقال أنه إذا غضب على الرجل يمسك حلقه ويعصره فيقطع حلقه ورقبته ، وكأنت العرب تهابه ، فصال وجال بين الصفين وأشهر نفسه بين العسكرين ثم طلب البراز وحمل على ميمنة المسلمين فقتل سبعة ثم على الميسره

فقتل ستة ثم حمل على القلب فتلقاه العرمرم ابن الدئل فرده على عقبيه فعاد بين الصفين يطلب البراز فبرز إليه مجاهد ابن أوس فجندله جنادل ، ثم برز له أحد بني مخزوم فتقاتلا أمدا حتى غابا عن الأنظار ثم افترقا عن سلامة ، فتظاهر جنادل بالتقصير فطمع فيه المخزومي فتبعه فعطف عليه جنادل على غفلة فاقتلعه من سرجه وسلمه لقومه ، وأمر بصلبه بين الصفين وأن يرمى بالنبل ففعل أعداء الله ذلك فعظم هذا على المسلمين، ثم عاد جنادل للبراز فبرز إليه العرمرم ابن الدئل فجالا وصالا واعتركا حتى جرى منهما العرق وازورت نحوهما الحدق ، ثم إن العرمرم قاربه ولاصقه وسدد عليه مذاهبه ، وهجم عليه وقبض على مراق بطنه فخطفه من سرجه كما يخطف الباشق العصفور، هنا كبر المسلمون فارتعدت فرائص المشركين فحملوا حملة منكرة، واختلط الجيشان، وتصادم العسكران ، وطارت الرؤوس ، وهلكت النفوس ، ودام القتال حتى اقتراب العصر فافترق الفريقان وقد قتل منهم خلق كثير ، ثم وصل الخبر إلى رأس الغول ومن معه في جبل البلس نزول ، إن ابنك قد أسر ، فرمى التاج عن رأسه وهلب أذناب الخيل ، وقال لقومه : اجتمعت بساحتي ثلاث ، سرق إلهي وأسر ابني وهرب الزبير ، وسأخرج لقتال المسلمين بالصبيان والإماء والعبيد والشيبان وكل حامل قوس أو عصى ، ليرى المسلمون كثرتنا فتقع هيبتنا في قلوبهم ، وليعلم فارس أن لا حياة لنا بعده.

قال الراوي : أقبل الوزير على عبد له يقال له صارم وقال له : يا صارم ، لي إليك حاجة وعليك بكتمان ما تسمع ، قال العبد سمعا وطاعة ، قال : اذهب إلى الإمام علي بن أبي طالب وبلغه السلام ، ثم أخبره أن رأس الغول قد حشد له حشدا كبيرا لكنه من عوام الناس الذين لا قبل لهم بحرب أو طعان ، فإذا رأيتم كثرتهم فلا يفزعنكم هذا ، إنما هم غثاء كغثاء السيل ، فانطلق

العبد حتى وصل معسكر المسلمين ، وعندما عرفوه وآمنوه أدخلوه على الإمام ، فأوصل له رسالة الوزير على التمام .

قال الراوي : نظر الإمام في كلام العبد ثم شاور أهل الحل والعقد ، فرأوا تقسيم العسكر إلى ثلاث فرق ، تكمن فرقتان ، ثم إذا طلعت الشمس يحمل الإمام بفرقته فينهزم قدامهم حتى نصل إلى موضع الكمين فتخرج الفرقتان ، ثم وضع على الكمين الأيمن عمرو بن معد كرب ، وعلى الكمين الأيسر المقداد بن الأسود ، ثم قال للجميع : إذا ضربت البوقات فأخرجوا ، فلما طلعت الشمس على رؤوس الجبال لبست المشركين سلاحها وركبوا خيولهم ونصبوا سريرا وضعوا عليه ما يشبه إلههم ، ونادى مناديهم : إلهكم معكم ، ينظر إليكم ، ويرى قتالكم ، وينصركم على عدوكم ، ثم أطلع الملك الكساوي والأموال ، ففرقها بين الرجال ، وعندما عليت هممهم حملوا على المسلمين ، واشتدت الحرب وكثر الطعن والضرب وزاد الكرب ، فانهزم الإمام على ماجرت به الخطة بالتمام ، وتبعهم المشركون حتى وصلوا إلى حيث الكمائن فضربت الأبواق فخرجت الكمائن وقد دارت الدائرة على حشود رأس الغول ووقعت فيهم كسرة كبرى فتناثروا في الشعبان والأودية وغنم المسلمون الأموال والخيل ، أما من أنهزم من جيش المشركين فقد أنثالوا حتى تجمعوا في فم الوادي فوقف فيهم رأس الغول وخوفهم من القعود فإن المسلمين جادون في طلبهم ، لابد أن تثبت لهم طائفة منكم تشاغلهم ، وطائفة تجمع ما بقي من النساء والصبيان والعبيد ، افعلوا ما أمرت قبل أن يقتسم المسلمون إلهكم فتصبح مسبة لكم بين العرب ،ثم استخلف ولده دعامة على الوادي الرابع ومضى هو إلى الوادي السابع وادي الزهرا.

قال الراوي : دخل رأس الغول على زوجته وعياله وكلهم يموجون بالبكاء والصراخ والنواح والويل ، وليس فيهم بيت إلا وقتل منهم نفس واثنين وثلاث ، فلما دخل عدوالله على زوجته بكى طويلا وبكت كثيرا ، ثم دخل على ابنته الزلفى وهي فصيحة اللسان ، عربية الجنان ، ما قهرها فارس ، ولا صرعها ممارس ، وقد غلبت الفرسان وقهرت الشجعان ، وكان قد خطبها كثير من سائر الملوك من الشرق والغرب ، وبذلوا فيها الأموال والمدن والحصون والخيل والإبل والجوار والعبيد والأموال الثقال من الذهب والفضة واللؤلؤ والجواهر ، وأبت أن تتزوج إلا بمن يقهرها في ميدان الحرب ويعليها في الطعن والضرب وكأنت إذا آتاها سيد يخطبها تركب جوادها وتلبس سلاحها وتنزل بين الفرسان وتجول في الميدان وتطاعن الأقران ، ثم تحمل على الغلام وتضربه بعقب الرمح تنكسه على الأرض حتى قيل إنها نكست تسعين سيدا من أولاد الملوك ، قال : فلما رأت أبيها يبكي قالت ما يبكيك ؟ قال : يبكيني هؤلاء القوم الذين ظهروا علينا وأسروا أخوتك مقلقل وعرفجه وجنادل وقد أدخلهم في دينه وضحك عليهم وسحرهم ، قالت الزلفى : يا ابتِ ، إخوتي ما هم ناقصين ، ولا يميلون إلى السحر ولا إلى الكذب ولا يتبعون الزور ، ولكن لاح لهم الحق فاتبعوه ، فصعق رأس الغول من مقالة الزلفى ثم نهرها : أي دين وأي حق ؟ قالت : دين الإسلام يا أبي هو دين الحق ، وإلهه هو القاهر الناصر ، قال : صبأت يا زلفى ؟ قالت : بل أسلمت لله رب العالمين ، والرأي أن تسلم كما أسلمنا فتحفظ ملكك وبلادك ولا تشمت أعداءك وحسادك ، قال: فهزها من كتفيها هزا وقال : وتجحدين إلهك فارس؟ قالت : فارس صنم لا ينفع ولا يضر ، لم يحمي نفسه من سارقيه ، فاستشاط الملك غضبا ولطمها على وجهها لطمة جبار عنيد مكابر.

قال الراوي : دخلت الزلفى قبتها ، فلما سكنت نفسها دعت عبدا لها يقال له الصارم ، لا يعصي لها أمرا ، قالت : يا صارم ، هل لك في عتقك من الرق وأعطيك غنوتك من المال وتقضي لي حاجة وتكتمها فلا تعلم بها أحدا ، قال : لبيك وسعديك ، فما حاجتك ؟ قالت : تحمل كتابي هذا إلى مرة بن كعب سيد بني عوّاف ، قال : سمعا وطاعة يا مولاتي ، فحمل الكتاب وسار ، حتى أشرف على مرة في البرية خارج الدار، وقد اجتمع وصحبه يشوون اللحم على النار ، فأقبل حتى جلس عندهم وأكل مما يأكلون ، ثم سلم الكتاب إلى مرة ففضه وقراه ، فلما تبين محتواه ، تهلل وجهه وخلع للعبد خلعة يمانية وأعطاه ماية دينار وطوق وعمامة، وقال له سر إلى من أرسلك وقل له إني في أثرك ، فعاد من وقته حتى بلغ الزلفى ، وأخبرها بما ألفى، فبقيت ساهرة حتى مضى من الليل ثلثه ، وكأنت ليلة ذات ريح ومطر، عقد الظلام بأطرافها .

قال الراوي : أما مرة فإنه قد لبس لامة حربه وأخذ معه ناقة عليها هودج من العرعر، وفيه من الفواكه والأطعمة ما تشبع منه العين قبل البطن، وسلم زمامها لعبد من عبيده اسمه الكنّاح ، فساروا حتى وصلوا وادي الزهرا ، فمال إلى مغارة في جبل الريان ، فأناخ الناقة وعقلها بفاضل زمامها ، ثم قال للكناح : عد من حيث أتيت ولا تخبر أحدا بما صار أو سمعت أو رأيت ، ثم خلع أثوابه إلا ثوبا ، وأقبل يتخطى المضارب والسرادقات والخيام حتى دنا من قبة الزلفى ، وأخذ يحصم ، فأنتبهت جواري الزلفى ، وعرفت الزلفى أنه مرة فقالت لهن : أنا التي حصمت لأعرف النابهة منكن من النايمة ، فتناومت فقمن إلى خيمتهن ، ثم خرجت الزلفى فنظرت مرة ونظرها ، ثم قالت : أنتظرني فوق العين وأنا آتيك عاجلا ، فمضى مرة، أما الزلفى فقد لبست

أفخر ثيابها ولبست درع حصين وتقلدت بسيف قاطع ورمح طويل وأخذت حاجتها من المال وتعممت بعمامة قصب معلمة محثمة ، ثم ركبت جواد أدهم عالي من الخيل ، ملتف العصب ، ديال الذنب ، من أجود خيول العرب ، ثم خرجت تتخطى المضارب والخيام حتى التقت مرة ، فسارا مسافة بعيدة فلما أسفر الصباح ركنا إلى مرج أخضر في علّوه غدير صافي ، فنزلوا وأطلقوا الناقة والخيول لترعى ، وبعد أن أكلا بعض الزاد قالت له ، ما بلغكم عن النبي القرشي محمد ، قال : ساحر كذاب ، فقالت : وهل للساحر الكذاب آيات ومعجزات ؟ انشق له القمر ، وتفجر الماء من بين أصابعه ، وكلمه الطير والوحش وآمن به الإنس والجن ، وقد آمن به إخوتي : عرفجه ومقلقل وجنادل ، فأنتفض مرة وتغير حاله وقال : والله لولاك قرة عين وثمرة قلب لألبستك ثوب الموت وأخمدت حسك ، حدثتك نفسكِ بالمحال وقادتكِ إلى طريق الضلال ، تتركي دين أبيك وجدك وتبتغي دين رجل من قريش ؟ فلما سمعت الزلفى منه ما قال ، ضحكت وقالت : اعلم إني أردت أبصر ما في نفسك فوجدتك لازم دين آبائك وأجدادك ، فضحك حتى دمعت عيناه ، ثم نهض إلى خرج له فأخرج منه زق خمر ، قال : اشربي معي ، قالت : أخشى على نفسي، ثم إن اللعين أقبل يشرب ويكرع حتى دار به رأسه فغلبه النوم ، ولما شخر شخير الثور، قامت عليه بالسيف فطيرت رأسه وعجلت به إلى النار، ثم لبست ملابسه وسارت تريد عسكر المسلمين، فما سارت قليلا حتى لحقت برجل من قومها ، فقال لها يظنها رجلا : من أين يا أخا العرب ؟ قالت : من عدن وأطلب تمهمة ، ثم مضى عنها وقبل أن يبتعد تعثر فرسه فقال : تعس محمد وسحق ، فأقبلت عليه وقالت : يا لئيم ، تعثر فرسك ومحمد يؤثم ؟ قال : لعلك من رجاله يا هذا ؟ ثم حمل عليها يريد قتلها فحملت عليه وجالا

وصالا ثم عاجلته بضربة أطارت رأسه ، ثم سارت غير بعيد وإذا لقيها فارسين أقبلا من البرية ، فسلما وسألا : من أين يا أخا العرب ؟ قالت : من يثرب ، فحملوا عليها وحملت عليهم فمكنها الله منهما ، ثم سارت قليلا وإذا هي بغبار قد ثار وعلا وسد الأقطار ، فلما انكشف بأن عن عشرة فوارس ، فلما دنوا منها وسلموا عليها وردت عليهم قالوا : من أين يا أخا العرب ؟ قالت : من يثرب ، فحملوا عليها وحملت عليهم ، فلم يزالا في قتال شديد وإذا بغبرة قد طلعت وانكشفت عن ماية فارس ، فإذا بها سرية لراس الغول ،فلما رأوهم أقبلوا قالوا هذا فارس من أصحاب محمد فعطف القوم نحوها وهم لا يعلمون إلا أنها رجل ، فبرز لها فارس يقال له ولّاخ فتقاتلا و تزاعقا فبادرته بنجلاء في صدره خرجت تلمع من ظهره ، فلم تزل حتى قتلت أربعة عشر فارس ، فتشاوروا في أمرها فقرروا الهجوم عليها جماعة فقام فارس منهم يقال له رياح وقال : و اعيباه ، كلكم على فارس واحد ؟ أنا أخرج إليه وأكفيكم أمره ، فخرج الخسران إلى حمامه ، فلما رأوه مجندلا أطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة وجردوا الصفاح وعلا الصياح وأحدقوا بها من كل جانب ، فأيقنت بالبلا فجأرت بالشكوى إلى رب السماء ، يا إلهي وسيدي ومولاي ، بحق نبيك وخير خلقك إنك لا تتلف روحي حتى أنظر إلى محمد ولا تهلكني قبل إسلامي على يديه فقد فارقت أهلي وتركت وطني وخرجت في طاعتك فبلغني فيه أملي واختم بالسعادة عملي، فلما استتمت الدعاء نظرت إلى السماء فإذا الجو قد انقلب وإذا العواصف قد دارت فرأت تفرقهم عنها ذات اليمين وذات الشمال ، ووجدت فرجة لا أحد منهم فيها فسلكتها نحو الجبل وهي تتلفت نحوهم حتى لم تعد تر منهم أحدا، فلما سكن الجو أيقنت بقربها من الله فزادها ذلك إيمأنا، ثم سارت وبعد برهة عن لها حمار وحش فتبعته حتى رمته بسهم فصادته

، فأشعلت نارا ووضعته فيها ولما فاحت رائحة الشواء إذا برجلين قد أوقفا فرسيهما وتقدما فسلما فردت السلام ، فقالا : من أين يا أخا العرب؟ قالت من صنعاء اليمن ، قالا : أنعم وأكرم ، شاهدناك تصيد حمار الوحش فأعجبنا فعلك ، ونحن جائعان فهل نأكل معك ؟ قالت : تفضلا ، اجلسا قرب النار ، فلما جلسا بان وجهيهما فإذا هما أخويها مقلقل وعرفجه ، فأخذت تقطع من اللحم وترميه لهما ، وعندما اطمئنا قالا : يا أخا العرب ، لو كشفت اللثام ، فنتعرف عليك ، ونكون عونا لك وتكون عونا لنا في هذا المهمه القفر ، فكشفت اللثام فقالا بصوت واحد : أختنا الزلفى ورب الكعبة ، ثم وثبا إليها وعانقاها وسألاها عن حالها فأخبرتهما عن كل ما جرى لها .

قال الراوي : هذا ما كان من الزلفى ، أما ما كان من أبيها ، فإنه بعد أن لطمها ندم واغتم فذهب إلى زوجته وأخبرها بخبرها ، فقالت زوجته : الزلفى لا تحمل الغيض فطب نفسا ولا تخش شيئا ، قال فاذهبي إليها وطيبي نفسها ، فذهبت إلى قبة الزلفى فلم تجدها ، فسألت الجواري فقلن : ذهبت مع مرة بن كعب بليل ، فعظم ذلك على الأم ، فأقبلت إلى أبيها وقالت له : ما زلت تضربها حتى أخرجتها من يدك ، وأخبرته بخبرها فاغتم الملك فأنفذ خلفها ثلاثة آلاف فارس يتقدمهم ابن عمه القتال بن النمر .

قال الراوي : فبينما الزلفى تخاطب اخويها وإذا بغبرة قد طلعت وإذا بالفرسان من تحتها قد أشرقت فقالت الزلفى : دهمتنا الخيل ، فتواثبوا إلى خيولهم فأسرجوها وركبوها ، وما استقروا على ظهورها حتى صاح فيهم فارس يسأل عن الجارية ، فقال المقلقل لا شأن لكم بالجاريه ، فتلافتوا في بعضهم ثم حملوا عليهم فلم يظفروا بأحد منهم وسقط منهم ثمانين فارسا ، فشدوا مرة ثانية فأسروا المقلقل ، ثم أسروا عرفجة ، ثم أحاطوا بالزلفى إحاطة السوار

بالمعصم ، فأقبل نحوها القتال بن النمر فطعنها طعنة مروعة لكنها انقلبت إلى بطن جوادها فمرت الطعنة في الهواء خائبة ، وقبل أن يدرك القتال خيبته عاجلته بطعنة عجلت به إلى النار ، فتكاثرت عليها الفرسان ، فلما كادت أن تقع في أسرهم إذا بصيحة مدوية فزع لها كل من كان في المكان ، وبهت الجميع فالتفتوا فإذا هو الليث الغالب ، علي ابن أبي طالب ومعه من الصناديد : الزبير وطلحة والعباس بن مرداس والفضل بن العباس وعلي بن حاتم وثابت بن عقال وخالد وعمار رضي الله عنهم أجمعين ، فساطوا هؤلاء اللئام، وانقذوا الزلفى وأخويها من الموت الزؤام ، قال الراوي : فقاتلوا قتالا تعجز عنه جن سليمان ، وفي دون ساعة تركوهم طعام للوحوش والطيور ، يتخبطون في دمائهم كالأغنام.

قال الراوي : هذا ما كان من أمر سرية القتّال بن النمر ، أما ما كان من رأس الغول فإنه لما تباطا خبر القتال بن النمر ، أتبعه خمسماية فارس ليكونوا عونا له ، فلما وصلوا المعمعة وجدوا قومهم صرعى كأعجاز النخل ، ولا سلاح ولا خيل ، فعلموا أن المسلمين قد تمكنوا منهم وغنموا ما معهم ، فعاد الخمسماية إلى رأس الغول فلما علم بما كان دخل عليه من الغم مالم يتحمله إنسان . قال الإمام رضي الله عنه لإخوة الزلفى : كونوا دونها لا يغمضن لكم جفن ، ثم أقام عمرو ابن أميه الضمري ومعهماية فارس حارسا على العسكر ، وعندما اطمأن عمرو على العسكر زهم بعض من كانوا معه وقال ما رأيكم لو هجدنا عسكر العدو الآن ؟ قالوا: لا . الليل الان في ثلثه الأول ، ولكن نترك ذلك حتى الثلث الأخير من الليل يكون النوم قد علق برؤوسهم ، قال عمرو : حسنا ، ولما حل الثلث الأخير أسربوا نحو عسكر العدو ولكن الرقيب كان نابها فأخبروا بعضهم بعضا واتفقوا على ترك المسلمين حتى يتوسطوا

الوادي ، وعندما فعلوا ذلك أحدقوا بهم من كل جانب فأسروا عمرو ومن كان معه . جاء رأس الغول ليتحقق من الأمر فوجد الأمر قد وقع ، فرأى عمرو في السلاسل مقيدا فقال : قبحت من شيبة وقبحت من فارس ، وقعت يا شيخ السوء في يدي وسأخمد منك الأنفاس وأسكنك ظلمة الأرماس ، يا موري الفتن ، يا موشي المحن ، ها قد أوقعك إلهي فارس في قبضتي بعد أن حرقت كبدي فلأقطعن لحمك وآكله وأشربن دمك وأجرعه ، ثم أمر أن ينصب له خشبة بين الصفين ، وكل من في يده شي يضربه به ، وعندما أداروا كتافه وهموا بصلبه رآهم الوزير، فتظاهر بالفرح، وتقدم من عمرو، فشتمه بعد أن غمز له، ونتف لحيته، وقال: لكم الويل بعد الويل يا أعداء رأس الغول .

قال الراوي هذا ما كان من أمر عمرو ومن معه ، وأما الإمام رضي الله عنه وأرضاه فإنه قد اغتم كثيرا لما كان ، فاختار من قومه فوق المائة وأمرهم بالمسير ، قال عبد الله : هذه طريق ما تسلكها الخيل فلنتركها هنا ونسير على أقدامنا ، وساروا بين هبوط وصعود ، تحوم عليهم الغربان وتدوي في أسماعهم أصوات الغيلان ومعازف الجان ، وكلما علا صوت من حولهم صبّرهم الإمام ،وقد وصلوا إلى وادي عميق فبدأ عبد الله بالنزول ولما هم باتباعه الباقون، هالهم عشرة أسود كل أسد كأنه الجبل ، فلما رأى الإمام ماحل بالرجال من الوجل جمع أذياله وسل حسامه ودنا من السباع فتقدم منه السبع الأشد ، فجمع جرمه ثم فقع بذنبه وبحث الأرض وزأر زئيرا ترتعد منه الأبدان ثم زكم زكمة كأنها قصف الرعد ، ثم اجتمع وبينه وبين الإمام خمسون خطوة ثم وثب لقدام مع ارتفاع مقدار خمسة أذرع في الهواء ثم هوى كأنه قطعة من جبل ثم زمجر وهمهم فتفرق المسلمون أما الإمام فقد برز له متعوذا بالله مندرقا تحت درقته ثم هوت يمناه بذي الفقار على جبهة الأسد خرج صقيلا من عند ذنبه ،

فتداورت الأسود وفقعت بأذنابها وتندحت في التراب ، قال عمار فكأنما السماء وقعت على الأرض ، ثم هجم أسد ثان على الإمام علي فركبه الإمام فمسك أعلى ذنبه وجبد رأسه فكسر ظهره وتركه صريعا ، فهجمت السباع على الإمام فتواثب المسلمون إليها فتقدم خالد وتقدم إليه أسيد فلطمه الأسد فأخذها خالد في درقته فكسرها نصفين ، فبادر خالد إلى مخانق الأسد فشد عليها حتى خرجت عيناه ، فتقد السيار فوثب إليه أسد فلطمه فكسر درقته وبعج بطنه ، فتقدم منقذ بن خالد فوثب إليه أسد فوقع عليه فنادى أدركوني فلم يقدر عليه أحد فمد يده إلى مخاصي الأسد فعصرها فماتا معا ، فتقدم مروان بن زيد وتعلق بأصل ذنب الأسد فجعل الأسد يدور والرجل يدور معه ، حتى تعب الرجل فأخذ ينادي يا قوم الحقوني فلم يدركه أحد حتى داخ الرجل وتعثر فلطمه الأسد وداسه وخشف راسه وأخذه في فمه وولى هاربا ، عند ذلك حمل الإمام عليها، وغاص في وسطها ثم عاد في كل يد أسد ضرب واحدا بالثاني فهلكا من وقتهما ، ثم تكاثر الناس على السباع فقتلوا سبعة وهرب الباقي ، فانحدر الإمام إلى الوادي ، فما استقروا في باطنه إلا والعجاج والدخان والنيران ودمدمت الجن والغيلان ، فتعوذ الإمام من هول ما بدا، ثم اختار من أصحابه ثلاثين وأمر البقية بالتزام جناب الوادي ، ثم انحدر هو بالثلاثين وجردوا سيوفهم وأكثروا من قراءة القران ، وأحاطت بهم الجن من كل جانب ومكان ، حتى صار لصدورهم جادح كأنه جادح السيل ، واختلط جرس الصوت بظلمة الليل ، فقال الإمام لأصحابه : كونوا صفا واحدا ، لا يبعد منكم أحد ، فلما حملت عليهم الجن استقبلهم الإمام وأصحابه بضرب يقد وطعن يهد وحملوا عليهم واشتبك القتال وكثر القتل في الجن حتى كاد يجري الدم في بطن الوادي ، ثم انهزمت الجن وغاروا في الأرض وقد قتل منهم

الكثير ثم سار الإمام وأصحابه حتى اجتازوا الوادي السادس نضخة الشمس ، فعدل بهم مغارة كبيرة يقال لها مغارة الثعالب ، قال الإمام : انزل يا عبد الله إلى الوادي وتجسس وطوف وانظر ما يقولون واسأل عن الأسارى ، فنزل عبد الله وقد شد حزامه ورفع أذياله إلى فوق ركبتيه ، وأحنى ظهره واتخذ في يده عصى ومضى على أنه شحاذ أعمى ، ودار في الحلل والبيوت ، الكلاب تنبحه وهو ينادي : أنا رجل من رياح ، ذهب بصري على كبري ، وبعد سفري ، واشتد فقري وعظم أمري ، وقل صبري فحرت في أمري ، فاجتمع عليه عقال وجهال ، وشرع يندب قتلاهم ويمدح ملكهم ، فأعطوه من خبزهم ولحمهم وفضول أموالهم ، ثم أتى شعبا من شعابهم وقف خلف صخرة على جبل فنظر الوادي ساعة ثم مضى نحو الإمام على عجل ، فلما رآه الإمام أدرك أن لعجلته سببا فقال : ما وراءك يا بن أنس ؟ فقال : أبصرت غبرة وما عرفت ما تحتها ، ثم وضع ما معه من طعام ، وعاد إلى فم المضيق فدنت الغبرة وانكشفت عن عشرين فارس وبين أيديهم قطار فيه ماية جمل ، محملة بالطعام والتمر ، وهي في طريقها لعدو الله راس الغول ، يقودها فارس مذكور اسمه صلاح بن مجادل ، فوقف الإمام وعبد الله حتى حطوا بين واديين فاتبعاهما ، فلما بلغا مضيق من الأرض أمر الإمام عبد الله أن يبرز إليهم فنزل عبد الله متلثما وناداهم كأنما به جنون : يا بني اللیام ، من أين أقبلتم بهذه الغارة ؟ خلوا عنها وانجوا بأنفسكم سالمين ، فتضاحكوا من كلامه، فقال صلاح : دونك والغنيمة فلا مانع عنها ولا دافع ، لقد خفنا من بأسك ، وفزعنا من مراسك ، فدونك والقطار خذه . فأوتر عبد الله قوسه وضرب واحدا منهم فقتله ، فلما رأوا ذلك ، أطلقوا الرمي من كل جانب ثم أحدقوا به ، فنزل الإمام شاهرا سيفه عليهم ، فتلقاه صلاح ابن مجادل ، فضربه الإمام رضي الله

عنه ضربة أطارت رأسه ، وحمل على القوم فجعل يقدهم قدا وجعل عبد الله يرشقهم بالنبل ساعة فلم ينج منهم أحد ، فاستاقوا الإبل وجوا بها لمغارة الثعالب وحطوا أحمالها وحبسوا الإبل في موضع ، أما الإمام فلم يكن معهم ، بقي ينتظر عدو الله حتى أظلم الليل ، فنظر إلى مشاعل قد أقبلت والأسارى قد قربت ، فقال الإمام : يا عبد الله انزل إليهم وآتني بخبرهم ، فنزل عبد الله نحوهم والقوم قد نزلوا بالسحر ، وأضرموا النيران ، فدنا منهم عبد الله فإذا هم يأكلون الطعام وعمرو ساهم مقيد في موضعه، فعاد عبد الله إلى الإمام وأعلمه بذلك ، فقال : وكم يكونوا الكفار قال : قدر مائتي فارس وأبقص ، فأمر الإمام أصحابه أن يلبسوا السلاح ، ثم مضى رضي الله عنه وربعه في أثره ، فلما قرب من العدو وإذا هم يجلدون عمرو ، وجلاجل ابن مخارق يقول له : لابد أن اقطع مهمتك وأحرق عظامك ، وأين أنت بعد من العذاب ، فادع ربك الذي تزعم ليخلصك منا ،فإن كان ربك بعيد في السماء فنبيك في الأرض أدعه ليأتيك بالفرج، وإن كان محمد بعيد عنك فادع علي بن أبي طالب يخلصك منا ، لكن هيهات ، لقد وقعت في القفص ومالك منا مخلص ، قال عمرو : بل ربي قريب ممن دعاه ، ومحمد شفيع لمن والاه ، وعلي مطيع لخالقه ومولاه.

قال الراوي : فلما سمع علي كلام عمرو قال: أبشر بعبد الله المطيع لخالقه ومولاه، أبشر بي وأنا علي بن أبي طالب، فشخص الكفار بأبصارهم نحوه، ودنا علي منهم ، وأقبل المسلمين على المشركين فحافوهم مثل الحلقة الدايره، وعندما تكاثر المسلمون على المشركين قال قائلهم: خذوا أسراكم أيها المسلمين واتركونا وشأننا ، قال الإمام : هيهات ، فأخذوا المشركين أسارى كلهم ، ونظر الإمام فرأى جلاجل بن راس الغول يفر فتبعه وحمل عليه وصعق

فيه وضرب رمحه فطيره من يده ثم أطبق عليه الإمام فاقتلعه من سرجه وأخذه كما فرخ الحمام وكتفه ، ثم حلوا أسارى المسلمين ، وكتفوا أسارى المشركين ، وساروا بهم إلى مغارة الثعالب ومنها إلى معسكر المسلمين ، وفي الصباح برز عمرو بن أمية الضمري بين الصفين وأخذ يصيح بصوته الصليب ، مخاطبا الملك رأس الغول : ويلك يا عدو الله ،أنا عمرو بن أمية الضمري ،نجاني ربي من كيدك ، وهاهم جنودك المائتين أسرى عندنا ، وهذه جمالك وما عليها من زادك وكسوتك قد أخذناها ، وقريبا نلحقك ونخرب ديارك ، ونقطع آثارك .

قال الراوي : فلما سمع رأس الغول مقالة عمرو ، قام وقعد ، وكفر وجحد ، وطغى وتنمرد ، وماجوا المشركين بعضهم ببعض مثل البحر المتلاطم بالأمواج وقد ضاقت صدورهم ورجفت قلوبهم، أما المسلمين فقد اشتدت عزائمهم، وازدادوا قوة ونشاطا، وعندما أدرك الإمام أن رأس الغول يشحذ همة عسكره لقتال المسلمين، هلل وكبر فحمل على الميمنة، فجاوبه عمرو بن معدي كرب الزبيدي بحملة مناظرة على الميسرة، وجاوب خالد والمقداد والعرمرم على القلب ، وأطلقوا الأعنة وقوصوا الأسنة ، فتصادمت الرجال ، وزعقت الأبطال ، وصهلت الخيل وعظم الويل ، وثار الغبار ، وأظلم النهار ، وحاق بالكفار الدمار ، هنا صاح رأس الغول ، ويلكم هذا يومكم ، فما أصحاب محمد بأقوى منكم ، فشد بذلك عزم الرجال ، وتعاظم القتال ، لكن ميزان المسلمين كان أرجح، فأدرك رأس الغول أن الهزيمة واقعة، فرّ إلى الوادي الخامس، وعندما علم جيشه بذلك، ولو مثله على أعقابهم خاسئين، وقد داسوا بعضهم بعض ، واختنق كثير منهم ، ودخل المسلمون خلفهم للوادي الخامس ، وكان قتلى المشركين خمسة الآف ، وقتلى المسلمين خمسماية ، ثم إن المشركون عبروا للوادي السادس ، ونصب المسلمون خيامهم في الوادي الخامس

، وأمسك الفريقان عن القتال بقية النهار فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح ، صلى بهم الإمام صلاة الفجر ، ثم ركب المسلمون خيلهم ، وقد عرفوا ميمنتهم وميسرتهم وقلبهم وجناحيهم ، وكذلك فعل عدو الله رأس الغول ، وقد تقدم منه ابنه عكرمة ، وقال له : أسألك يا أبي بحق إلهك فارس أن تأذن لي أحمل عليهم ليرى الفريقان شدة بأسي وقوة مراسي ، وأربح الفخر وأكسب الذكر ، فلم يأذن له وقال : أخشى أن أفقد طلعتك ، واعدم غرتك ، وأنت العون والسند ، أخشى أن تقتل أو تؤسر أو يستميلك علي فتصبو مثل أخواتك ، قال عكرمة : كلا يا أبي ، أنا ممن ليس يدخل كلام المسلمين في قلبي ، فطب نفسا وقر عينا ، عندئذ أذن له أبوه ، فانطلق بين الصفين ، وأشهر نفسه بين العسكرين ، ثم إنه حمل وطلب البراز ، فبرز إليه ساهر بن غياث فطعنه بعقب الرمح طعنة أوقعته من على فرسه فأسره وسحبه إلى معسكر أبيه ، ثم برز له همام بن الأشقر فتبارزا برهة ثم ضربه عكرمة بالسيف صفحا فدوخه فسقط أرضا فسحبه تجاه معسكر أبيه ، وما زال بهم عكرمة حتى أسر خمسة وعشرين فارسا ، فرح أبوه بما كان وأعجب هو بنفسه ونفخ الشيطان في مناخيره فصال وجال وأخذ يطلب البراز ، فأقبلت الزلفى وقالت : يا إمام هذا أخي ، فأذن لي بمبارزته ، فبرزت إليه وعليها ثوب كتان ، وعلى الثوب زردية ، وعلى رأسها بيضة ململمة مجلية ، من تحتها جواد أدهم ، وفي كفها رمح مكعب ، فلما دنت من أخيها حملت عليه وحمل عليها، وهو لا يعرفها ، فتحاربا وتطاعنا وتشابكا مقدار ثلاث ساعات ، والعسكران قد بهتوا وشخصت عيونهم ومالوا نحوهما بالأعناق ، ثم افترقا عن سلامة ، أقبل من بعده عكرمة فقال : من أنت أيها الفارس الهمام والأسد الضرغام ، والله لولا أنك من رجال علي لقلت إنك من أولاد رأس الغول ، حلال أو حرام ،

ففزعت لمقولته الزلفى وكشفت عن وجهها وقالت بل حلال وأنا أختك الزلفى ، قال لها : تبا لك ، أما كنتِ معززة مكرمة عند أبيك ؟ قالت: بلى ،قال فما الذي غيرك ورضيتي بإهانة أبيك ، عودي إلى خدرك يا أختاه ولا تفضحي أبيك وإخوتك بين العربان ، قالت : بل أنصحك يا أخي أن تميل معي للإسلام فتترك عنك عبادة الأوثان، قال فلما سمع كلامها غضب وحمل عليها واشتبكا ساعة ثم ولت منهزمة فتبعها، لكنها عطفت عليه فضربت راس جواده فسقط وسقط من فوقه، ثم مدت يدها وسحبته من شعره حتى أوقفته قدام الإمام ، فقال الإمام : أحضروا أخوه جلاجل ، فلما حضروا بين يديه ، ذكرهم بشبابهم وبالآخرة وعرض عليهم الإسلام فطلبوا مهلة للتفكير.

قال الراوي : هذا ما كان منهم ، وأما ما كان من أمر عدو الله ، فإنه قد مزق أثوابه وحثى التراب على راسه ولبس السواد ثم أقبل على ولده دعامة وقال : يا ولدي وقرة عيني ما بقي من أولادي السبعة غيرك فارحم شيبتي واحفظ فم الوادي ودبر العسكر حتى أطوف على العربان وأتشبر الشيخان وأجمع الرجال ، ثم ودع ابنه ، وخرج في عشرين فارسا

قال : فلما سمع منه ذلك الأمير منازل ووجوه قومه وساداتهم ، أجابه بثلاثة ألآف فارس ، ثم نزل على بشر بن ثابت فأجابه بشر بخمسة الآف فارس ، ثم نزل على حارث بن غشم فأمده بأربعة الآف فارس ، ثم نزل على عناتر ابن جماري فأجابه بثلاثة الآف ، ولا زال عدو الله يتشبر الرجال حتى اجتمع له ثلاثين ألف فارس ، فهز الخبيث رايته وحرك لحيته وسار والرايات تخفق على راسه، يسير بالليل ويكمن بالنهار حتى دنى من وادي الزهرا ، وأتى إلى قصره وأعلم زوجته بالعساكر ، ثم دخل على شبيه صنمه وخرّ له ساجدا ، وسأله النصر على الإمام ، ثم خرج وسار حتى أشرف على عسكره ، فأخبرهم بما

كان من سفره ، ثم جمع عرفاء قومه وقال لهم : قد عزمت على المكيدة لعلي ، لقد أكمنت ثلاثين ألف فارس في محاني الأودية ، لا يعلم بهم حتى الطير ، وسأكتب لعلي عن رغبتنا في الإسلام فإذا تراخوا ودب فيهم الكسل هجدناهم بليل لا يصبح عليهم بعدها صباح ، ثم استدعى الوزير وأمره أن يكتب كتابا فكتب فيه يقول : "هذا كتاب من الملك المعظم صاحب الرايات والبنود ، والأعلام والعقود ، والبوقات والجنود ، إلى علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ، أما بعد : فقد تقاتلنا ما قد كفى ، وجرى بيننا الدم حتى أنتهى المنتهى ، ولاح الحق وظهر الهدى ، ونحن نحب أن تكف عنا القتال ، حتى نتشاور فيما بيننا ونأتيك مسلمين ، وبالله ومحمد مؤمنين " ثم ختمه بخاتمه وأرسله مع عبد من عبيده ، وعندما هم العبد بالخروج ، تمهله الوزير وقال : أيها الملك ، إن الرسول على قدر المرسل ، وعلي رجل شريف ، فأرسل له بعض رجالك المهابين يكون هيبة لك وأعظم لقدرك ، فأرسل الملك رجلا معظما من بني عمومته يقال له المنذر ابن الديال ، قال الوزير : وزيادة في الهيبة يرسل له ابنك دعامة رسالة وأرسل له أنا وزيرك رسالة ، قبل الملك فكتب دعامة :" يا علي ، البغي يصرع صاحبه ، وما بعد الزيادة إلا النقصان ، وما بعد الربح إلا الخسران ، فكف عنا أذاك حتى ندخل في دينك " وكتب الوزير بيتين من الشعر فقط :

يا راقد الليل مسرورا بأوله ،،إن الحوادث تأتيك أسحارا

لا تفرحن بليل طاب أوله ،، وفي توإليه حقا نشعل النارا

فلما استلم الإمام علي هذه الكتب فهم من إشارة الوزير أن المشركين سيهجدون المسلمين بالليل ، ثم أمر الناس لا يناموا تلك الليلة ، ويوقدوا النيران ، ويخرجوا من الخيام بخيلهم وسلاحهم ، ولم يبق في الخيام أحد ، ثم

فرقهم ثلاث فرق وقال : تكون عيونكم على الخيام شاخصة وسيوفكم جاهزة ، فإذا رأيتم القوم قد دخلوا في الخيام ، ميلوا عليهم ميلة واحدة ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، وأمرهم أن يلبسوا فوق دروعهم ثياب بيض ، حتى يعرفوا بعضهم بعضا ، ففعلوا ذلك.

قال الراوي : هذا ما كان من أمر المسلمين ، أما ما كان من أمر عدو الله فإنه سار من وقته وساعته ، والعساكر معه ، وجعل يسير بهم ،فلما تناصف الليل طلبوا خيام المسلمين وكبسوها ، وحاطوا بها من كل مكان ،وكان الميعاد بين المسلمين دق الزير ، فلما دقوا الزير خرجوا عليهم من كل مكان كأنهم الأسود ، وأحاطوا بهم كالحلقة ، وكان الملك على جواد أشهب فهمزه وخرج من المعركة لكن المقداد أبصره ولحقه وأدركه ، فطعنه في ظهره لكنه هرب بجرحه ، ولم يزل الفريقان في قتال حتى طلع الصباح وافترقوا العسكران ، وقد قتل من المشركين خلق كثير وطعن ملكهم في ظهره ، فأسربوا كالغنم حتى أسفل الوادي ، فقام فيهم رجل حكيم يقال له عليبه وقال : ياقوم إن هؤلاء الناس قد ساعدتهم الأحكام ، ما قاتلهم أحد وظفر بهم ، والرأي أن ندخل الوادي ونغلق بابه ، ونقف على الأصوار ، وننصب المنجنيقات والعودات ، ونحمي أنفسنا وأولادنا، فقال السامعون : أصبت يا عليبه ، وعندما هموا بالدخول قال الملك : إذا كان لا بد من الدخول ، فلننتظر مطيح الليل ، والنيران على حالها ، وادخلوا واحدا بعد واحد من غير صياح ولا ضجيج ، قالوا : هذا الشوار ، فلما طاح الليل أتى الوزير إلى عبده وقال : امض إلى ابن أبي طالب ، واعلمه أن القوم قد عزموا على الحصار ، فإن هم فعلوا ذلك فقد طال بكم المقام ، ولكن أرسل لي عشرة من صناديدك ، كي أخلطهم في جملة القوم ، ليقرب الله بهم البعيد ويسهل كل شديد ، فلما سمع الإمام هذا الكلام قال :

أنا أولكم فمن يكون معي منكم ، فتدافع أصحابه لكن الرأي استقر على : عمرو بن معدي كرب ، والزبير بن العوام ، والعرمرم ، وطلحة ، وخالد ، والعباس بن مرداس ، وسعد بن عبادة ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن أنس ، فلبسوا سلاحهم، وركبوا خيولهم، وساروا حتى قاربوا جيش عدوهم ، وكان الوزير قد خرج من العسكر منتظرا قدوم العشرة ، فلما قدموا عرفوه وعرفهم وأشار لهم أن اتبعوني فتبعوه من بين كتائب العدو حتى أوصلهم مغارة في جنب الوادي السادس فأجلسهم فيها وقال : إذا طلعت الشمس فافعلوا ما تريدون ، وبينما هم على ذلك الحال إذا هم بمشعل قد أقبل فتأمله الوزير وإذا هو دعامة بن رأس الغول ، راكب جواده وهو يريد وادي الزهرا ، فقال الوزير للإمام : هذا دعامة بن رأس الغول ، ولم يبق له غيره ، فدونك وإياه ، ثم انحدر الوزير نحوه حتى قرب منه ثم وقف ينتظر ما يكون للإمام معه ، فركب الإمام جواده وانحدر من الجبل ، فوقف دعامة ينظر ما الخبر ، فنظر نحو الإمام وهو منقض من الجبل كأنه برج مشيد أو سد من حديد ، فلما نزل الإمام إلى الوادي أقبل دعامة على عبده، وقال انظر من هذا الفارس الذي أراه يقلب الصخور برجليه ، فدنا العبد من الإمام وقال من أنت أيها الفارس ؟ فقال : أنا فالق الجماجم ، بالسيوف الصوارم ، أنا الموت الأحمر ، البطل الغضنفر، ليث بني غالب ، علي ابن أبي طالب ، فلما سمع العبد ودعامة كلامه أيقنوا بالهلاك ، فأقبل دعامة على العبد وقال : أبرز إليه ، فقال العبد : يا مولاي ، العبد لا يبرز إلا لعبد مثله ، وهذا سيد من سادات قومه وفارس الأرض ، طولها والعرض ، فدونك إياه ، أنت له كفو وهو لك كفو ، أحمل عليه حملتك المعروفة ، واضربه ضرباتك الموصوفة ، فافلق مهمته لندرج براسه بين القبايل ،

ومنا يقول القائل ، دعامة بن راس الغول قتل علي ابن أبي طالب ، فيكون الرفع والذكر الجميل .
قال الراوي : شهد من شهد أن الإمام قد وقع من على قربوس سرجه من شدة الضحك عندما سمع كلام العبد ، أما دعامة فقد نفخه كلام العبد فنفخ الشيطان في معاطسه، ووقف مثل الجبل قدام الإمام ونادى وقال : اسمع يا غرّ قريش، لقد تطارت بك العربان حتى طاعتك الجبال والرمال والبلاد والعباد، وأنت تخرق الأرض طولا وعرضا
، لا يصعب عليك خندق ولا يعسر عليك جبل ولا يثنيك صور أو مترس ، فمن أين جئت إلى هذا المكان ؟ ومن أين سلكت ؟ أما كنت في عسكرك بعيدا ؟ بحق فارس ما أنت إلا ساحر وقد أعددت لك هذا ، وأشار إلى سيفه . قال الإمام : دع عنك كثرة الكلام وأسلم أو أترك قومك يسلموا وإلا فالحرب بيننا .فلما سمع دعامة كلامه نغز جواده وحمل على الإمام ، فقبض الإمام على سنان رمحه ، وجذبه وكسره ورماه ثم جذب اللعين سيفه فتضاربا فضرب الإمام قوائم فرسه فبراها بري القلم ، فوثب دعامة على الأرض قائما ، فنزل الإمام عن جواده وقال : من العدل أن أقاتلك راجلا ، فترجل الإمام عن جواده، وأقبل نحو دعامة ، كأنه بعض الأطواد أو بقية من قوم عاد ، ثم تجاولا طويلا واعتركا مليّا، فقال صارم : يا دعامة بان تقصير عدوك فاحمل عليه وخذه أسيرا واملكه حقيرا، يابن طالب إلى كم تذل بشجاعتك ؟ أما علمت أن دعامة فتى الفتيان وفارس الفرسان وشجيع الشجعان، فلما سمع الإمام كلام العبد صارم حذفه بحصمة فوقعت في راس العبد فخشفته، وحمل على دعامة فولى هاربا ، فوقع من أعلى الجبل وتدحرج حتى بطن الوادي ، فلحقه الإمام وقبض عليه من شعره وسحبه وسلمه إلى عبد الله بن أنس ، ثم قال

لعمرو بن معد كرب وأصحابه : قوموا حتى نخرج على القوم ، فقاموا وندروا من الجبل وأبقوا عبد الله بن أنس على حراسة دعامة .

قال الراوي : كان دعامة مكتوف الأيدي والرجلين وعبد الله يحرسه والمعركة تدور تحت الظلام ، والدائرة على العدو تدور ، والإمام وفرسانه يقتلوا البطل بعد البطل ، حتى قتلواماية فارس ولم يشعر بهم أحد ، وقد خرج بعض الحراس لقضاء الحاجة فتعثر بقتيل فظنه نائما فقال : قم يا نائم ، ولما لم يتحرك أخذ يحركه وإذا بدمه يثغب من جنبه ففزع وقال : من قتل هذا ؟ ثم تبين له أن المكان مليء بالقتلى كأنهم عقد القصب فتعجم والتحمت أضراسه وعاد إلى الملك مرعوبا ، فقال له الملك ما وراءك ، فأخبره بما رأى ، هنا صرخ الملك فاجتمعت حوله الرجال وحملته إلى حيث جنايز الأبطال ، فراغ عقله وعلا صياح القوم وصريخهم ، وماج الوادي فقال الملك : هذي وقايع علي ، والإمام وصحبه بينهم مختلطين معهم ما دروا عنهم ، ثم قال أحد المسلمين لواحد منهم أنت علي ؟ عرفتك يا خبيث ، فرد عليه : ماني بعلي وحق فارس ، ولما سمع الملك هذا الكلام قال : ويحكم ، علي بيننا الآن فأنتبهوا ، فتولوا هاربين حتى استقروا في الوادي السابع فنزلوه وأنسامهم تنهج كأنهم كلاب تلهث ، وكبّر الإمام من علوّ الصور فانطلقوا إليه وفتح لهم الباب فدخلوا ونصبوا الخيام والقباب وأخذ الوادي السادس وطلب الإمام دعامة بن راس الغول وعرض عليه الإسلام فأبى وقال : أخاف من ربي فارس أن أدع دينه ، فأمر الإمام بضرب عنقه ، فقال أخوه مقلقل دعه الليلة عندي حتى أهديه فلعله يسلم ، فقال له خذه ، فأخذه مقلقل إلى خيمته وأنذره وخوفه من النار ، وشوقه في الجنة ونعيمها، فقال له دعامة : يا أخي مقلقل لقد لان قلبي لكلامك وأنتحى دينك ، فقال مقلقل : اعلم يا أخي دعامة أن هذا هو دين الحق

والصدق ، فبقوا كذلك إلى أن مضى من الليل نصيفته ومقلقل يوعظه ودعامة يزيد لينا ، ثم بكى مقلقل رضي الله عنه خوفا من النار ونام.

قال الراوي : نام دعامة بجانب أخيه مقلقل ، ولما عرف أن مقلقل قد خدره النوم حبا على بطنه وخرج من الخيمة وعالج قيده حتى كسره ، ثم رجع للخيمة ومقلقل نائم ، فسحب سيفه وهوى به على رأس أخيه مقلقل فأطاحه، ثم أخذ الرأس معه ، وكان عدو الله قد دخل في الوقت ليأتيه ولده دعامة ، فطاف عليه فلم يجده ، فنظر فإذا عبده مقتول فعلم أن الإمام قد قتله وأسر دعامة ، ولقد هم الملك أن يقتل نفسه لولا أن دعامة قد دخل عليه في تلك الساعة ، ففرح به وأخذ علمه وأخبره بما جرى وكان وكيف قتل أخيه مقلقل ، ثم وضع رأس مقلقل بين يدي الملك، ولم يقدر الملك على الصبر ، فبكى بكاء مرا وجعل يقبل رأس مقلقل وهو يبكي .

قال الراوي : هذا ما كان منهم ، أما ما كان من أمر الإمام لما أصبح الصباح قال لعكرمة : آتيني بأخويك مقلقل ودعامة، فلما ذهب لخيمة أخيه ودخلها راعه مقلقل وهو مقتول ودعامة غير موجود في الخيمة ، فأمر بركوب الخيل وأن يطلبوا دعامة ، فركبوا ودوروا له فلم يجدوه ، ثم إن الملك أنفد ولده دعامة إلى الحصن وأمره بالحفظ عليه ورتب السلاح ووكل بكل برج عشرة رجال ، ونصبوا المنجنيقات وفتحوا الخزاين وفرقوا الأموال وأعدوا الرجال ، وهو مع هذا خايف من علي لا ياخذه قرار ولا تسعه ديار ، وأما الإمام فقد صلى بأصحابه صلاة الفجر ووعدهم بالنصر والظفر والرجوع إلى الأهل والأوطان وإنه قد قرب ما بعد ، ثم أن الإمام رأى أن يخرج في نفر من رجاله للاحتيال في دخول قصر مخارق وأخذ معه المقداد والزبير وطلحة والعباس والفضل وعمار وخالد وعبد الله بن أنس وعمرو بن أمية الضمري ، فلم يزالوا سايرين

في طريق ما سلكها النمل ولا تصل إليها النسور ، حتى وصلوا إلى الوادي السابع فوقف الإمام وهم متفكرين بأي حيلة يدخلون إلى الحصن فبينما هم كذلك وإذا هم بسبعين جمل قد أقبلت من باب الوادي السابع يقودها عشرة رجال وعلى الجمال هوادج فيها النساء وعليها أحمال ، فقال الإمام لأصحابه قفوا أنتم هنا ، لعلي أدخل واحتال في دخول الحصن وأصعد إلى البرج الذي يلي الوادي ، ثم أخذ معه حبل ومضى ، فقال عبد الله بن أنس وأنا معك فقال الإمام : اقعد ، لا يطرح الصوت علينا ، قال : لابد من ذلك ، فساروا جميعا، فصعد الإمام إلى شجرة في الطريق الذي يعبرون عليها الجمال ،وصعد عبد الله إلى جانب صخرة ، فأقبلت الهوادج نحو الإمام ، فعبروا من تحته وكأنت ليلة مظلمة ، فلما تاخر الجمل أبو هودج تعلق الإمام بغصن شجرة ثم حذف بنفسه فاستقر داخل الهودج وسلاحه معه ، وكان ذلك الهودج هودج الزلفى فلما ذهبت الزلفى أسلمت فعادوا يسحبوه فاضي ، وأما عبد الله بن أنس أتى إلى بعض الجمال ، فتعلق تحت إبطه ، وجعل رجليه بين فخذي الجمل ، وألزق صدره بصدر الجمل حتى لم يبن منه شيء ، فمضت الجمال حتى أتت إلى باب الحصن فنشدهم الحارس : من أنتم وأيش تريدون ؟ قالوا نحن جمالة الملك ومعنا نساؤه وجواريه، ففتح لهم الباب، وعندما دخلت الجمال وتوسطت المكان نزل الإمام وعبد الله ، وأتوا إلى عين ماء فجلسوا قريبا منها ، فإذا هم برجل قد أقبل إلى العين وشاف الإمام ورفيقه قاعدين فأتى نحوهما وقال من أنتم ؟ قال الإمام : نحن قوم تجار ومعنا متاع نجلبه للملك فدهمنا محمد الهاشمي وعساكره فقطع طريقنا وهربنا حتى توزينا هذا الحصن فهل وصلكم أمره ؟ فقال إن محمدا لا يزول من هاهنا حتى يخرب ديار الملك ويقطع آثاره ، وكلنا خائفون منه ، والملك أرسل ولده دعامة إلى عند وزيره

ليقفوا ويعدوا الرجال والسلاح والمنجنيقات ، وقد عزم الملك أن يدخل هو وجيشه إلى الحصن ويتحصن فيه، ثم جعل يحدثهم ويحدثوه ساعة فقال الإمام للرجل : يا أخي أحب أن تقضي لي حاجة ، قال : ماهي ؟ قال تروح للوزير وتقول : التجار الذي باعوك الثياب هم في الحصن عند عين الماء ، قال : طيب .

قال الراوي : ذهب الرجل فوجد الوزير خارج من عند دعامة يريد داره فبلغه رسالة الإمام ، وهنا أدرك الوزير أن الإمام قد دخل الحصن ، فصرف غلمانه ، ثم انطلق إلى العين حيث الإمام وعبد الله ، فلما وصل التقاهما وأخذ الوزير يقبل كف الإمام ويسأل كيف دخلتم الحصن فأعلمه الإمام بما جرى ، قال الإمام أين هو دعامة الآن ؟ قال الوزير : هو في الحصن الكبير ، هيا معي إلى داري وأنا أجمع بينك وبينه فمضى الوزير والإمام وعبد الله فقال للوزير : إن أصحابي من خارج الصور فكيف الحيلة في حضورهم فقال بدي احتال ونطلعهم هذه الساعة ثم خرج الوزير وعبد الله ومعهم الحبال وأطلعوا العشرة رجال وهم يسحبوا بعضهم البعض إلى أن تكاملوا وأتى بهم عبد الله إلى عند الإمام وأما الوزير فإنه مضى إلى عند دعامة وقال له يا مولاي افتكرت بأمر نغلب به محمد فقال دعامة وما هو قال قوم نطوف بالصور ونوصي الحراس ثم ندخل إلى منزلي وناكل الطعام ونجلس ندبر لنا أمرا فقال هيك يكون فقام الوزير وقام دعامة معه فطافوا بالصور ووصوا الحرس بالحفظ ثم مضوا ودخلوا دار الوزير فقفل الوزير الأبواب فلما دخلوا المجلس نظر دعامة وإذا الإمام جالس وأصحابه حوله وقد جرد سيوفهم على ركبهم وحجفهم في أيديهم فبهت دعامة ناظرا إليهم وقد تغير لونه وأيقن بالهلاك فنهض إليه الإمام وضربه ضربة طير رأسه عن بدنه إلا لعنة الله عليه وعجل الله بروحه إلى الهاوية وجعل

له فيها زاوية ثم خرج الوزير من عندهم فجمع الكبرا الذين هم في الحصن وأخبرهم بدخول الإمام وقتل دعامة وأظهر لهم راسه وخوفهم من بأس الإمام وسطوته وقال لهم إن عليا دخل في عشرة رجال من قومه وهم الأبطال الذي للمسلمين وإياكم أن لم تسلموا وإلا قتلكم عن آخركم ولا يبقى منكم أحد وإني ناصح لكم فأسلموا فجعلوا أهل الحصن كل سيد يدعو قومه للإسلام حتى أسلم أهل الحصن جميعهم وكان عدتهم أربعماية وثمانون رجل فقال الإمام اكتموا إيمانكم واخفوا إسلامكم وكل من جاء إلى الحصن من المشركين لا تمنعوه من الدخول فإذا دخلوا اضعوا فيهم السيف ثم قام الإمام في الحصن وأما عدو الله راس الغول فإنه لما أضاء الله بالصباح برز بين الصفين وأشهر نفسه بين العسكرين ولم يعلم بما قد جرى في الحصن فنادى يا عصبة السحار ويا جماعة المكار من عرفني فقد اكتفى ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي أنا مخارق بن شهاب الخثعمي الملقب براس الغول ثم إنه طلب البراز فبرز إليه رجل من بني مخزوم يقال له خندمه فحمل عليه مخارق فطعنه أخرج السنان يلمع من ظهره ثم برز إليه بكر بن جابر وكان فارس مذكور وبطل مشهور فجال على مخارق فعثر جواد بكر فطعنه مخارق فقتله ولم يزل يبرز إليه فارس بعد فارس حتى قتلا ثلاثين فارسا فوقفت الناس عنه وعن قتاله فجال وصال وحمل على الميمنة وعبر في القلب وجعل يقتل فارس بعد فارس ودارهم كدوران الرحى وأقبل يلعب بينهم مثل الأسد بين الأغنام فخرج وقد قتل جماعة فاعجبته نفسه وطلب البراز فلم يبرز إليه أحد ثم أقبل الإمام على عمرو بن معد كرب الزبيدي رضي الله عنه وقال ابرز إليه فقال يا لبيه ، فبرز وهو كأنه شعلة نار أو طود من الأطواد أو من بقية قوم عاد فلما قرب من مخارق فقال له من أنت الذي قد فنى أجلك وانقطع أملك فقال له عمرو أنا أقطع رأسك ومحمد

أنفاسك فقال له الملك مخارق أيها الفارس بين لي عن حسبك ونسبك فقال له عمرو ما أبعد دهنك وأعمى قلبك أنا الداهية الدهما أنا المصيبة العظمى أنا السم العلقم أنا المعروف بين العرب أنا الموصوف عند ذوي الرتب أنا عمرو بن معد كرب الزبيدي فارس اليمن وصنعاء وعدن فلما سمع الملك مخارق كلامه تاخر إلى ورايه وقال له يا فارس عدن حيث خرجت فأنا ما خرجت لقتالك إنما خرجت لقتال محمد بن عبد الله وإلى قتال علي ابن أبي طالب فعندها زعق به عمرو زعقة هايلة فظنت الناس أنها صاعقه نزلت من السماء ثم حمل على مخارق كأنه الجمل الهايج وداخله وضايقه ولازقه وهم أن يأخذه أسيرا فبادت المشركين ونادت بعضهم ببعض وقالوا يا قوم الحقوا سيدكم وإلا قتل فحملوا بأجمعهم على البطل عمرو فخلصوا ملكهم منه فحملت المسلمين ودام القتال إلى غروب الشمس ثم افترقوا وقد قتل من المشركين سبعماية فارس وقتل من المسلمين سبعة رجال ثم باتوا يتحارسان إلى الصباح وأسرجوا خيولهم ووقفوا في موقف الحرب فبرز راس الغول إلى الميدان ونادى هل من مبارز هل من مناجز فبرز إليه فارس فقتله وثاني فجندله وثالث فما أمهله ورابع وخامس حتى قتل مقتلة عظيمة فعندها طلب الإمام إلى عمرو أن يبرز إليه فبرز عمرو إليه كأنه قطعة من جبل أو قضاء الله إذا تحدر ونزل ولم يمهل دون أن حمل عليه وطاعنه وضايقه ولاصقه حتى جرى منهم العرق وازورت منهم الحدق وافترقا والتصقا وتباعدا وتقاربا حتى كلت من تحتهما الجوادين فعند ذلك هجم عمرو على عدو الله مخارق وأراد أن يضربه بالسيف فولى إلى قومه هاربا فلحقه عمرو وحملت المشركين عليه فطعن فيهم وردهم على أعقابهم وأما الإمام أمر أن تحمل المسلمين فحملوا وكبروا ولحقوا المشركين والتحم الجيشان ودام الطعان والنزال وكلما زحفوا عليهم يتكرسوا على بعضهم ويدوسوا بعضهم وأما الملعون فإنه

نوى على الدخول والحصار قال ودخل الحصن فأراد أهل الحصن الذين أسلموا على يد الإمام على أن يقوموا ويمنعوهم من الدخول فقال لهم الوزير لا أحد منكم يتحرك بحركة إن هذا القول فيها كفاية لهم ولامثالهم وأما أصحاب الإمام مضوا تابعينهم إلى الحصن وعاد الرجل المسلم يمسك الكافر يقتله ما أحد يلتفت إليه ولو كان ولده أو أخيه يتم منهزم فأين ما أحد يعن على احد وعلى والرجل ما يعرف صاحبه من عدوه وأما المسلمين فما رجعوا عنهم بل هم مشغولين في القتل فيهم من غير ممانع ولا محام عنهم حتى بقت الدنيا ملانة قتلا وعاد ما نجا إلا من كان تحته جواد سابق وأما راس الغول فإنه دخل الحصن وأمر بغلق الأبواب وسار إلى عند حريمه وما يعلم بما جرى فأدركه الوزير وسلم عليه وهناه بالسلامة وقال يا سيدي القعود ما عاد ينفعنا قم معي حتى نوصي الحراس ونوجه الناس على المنجنيقات وجميع الصخور والأحجار وعملنا نحنا وولدك دعامة حيله يكون فيها هلاك محمد وابن عمه وعسكرهم فقال الملك وماهي ؟ فقال له الوزير ليس الخبر كالأعيان قم معي فقام معه ومشوا إلى ناحية الصور ووصوا الناس بالحرس والسهر واليقظة فقال الملك وأين ولدي دعامة فقال الوزير ما أخبرتك أنه عندي في البيت روح معي إلى عنده حتى تراه وتنظر ما فعلنا فساروا إلى أن قربوا من دار الوزير فقال له إن إلهك فارس أرسل لي واحدا وقال هات الملك حتى أدعو له دعوه مستجابة وأدبره على شيء يأخذ محمدا وأصحابه فطاب بذلك قلب الملك وقال يا مولاي ادخل فدخل الملك قدام الوزير فسكر وراه الباب قال الراوي فلما توسط راس الغول في الدار فرأى الإمام وأصحابه جالسين فتغير لونه واصفر وجهه وأرجف قلبه واطربت جوارحه فلما رآه الإمام علي كرم الله وجهه فنهض إليه وقال له يا مخارق قل معي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ولك

مالنا وعليك ما علينا فقال راس الغول يا بن أبي طالب هذا شيء لا ينطقه لساني فضربه الإمام بسيفه طير راسه وأخمدت أنفاسه وعجل الله بروحه إلى النار وبيس القرار ثم إن الوزير صار يطلب عشرة بعد عشرة حتى ما خلى من الذين يعرفهم أحدا إلا الوزير فيجيبوا العشرة رجال فيثوروا عليهم المسلمين فيعرض عليه الإسلام فمن أسلم اجلسوا عندهم ومن أبى قتلوه وبعد ما خلصوا من شغلهم ولم يبق أحد فأخرجهم الوزير إلى أعلى الصور وأمرهم بالتكبير والتهليل وقد أيدهم الله بالنصر والفتح المبين ثم إنهم فتحوا الباب ودخل المسلمين والذي أسلم آمن على أهله وماله ثم جعل يطلب القبايل قبيلة بعد قبيلة فالذي أسلم نجا والذي أبى قتل ثم بعد ذلك أمر الإمام مناد ينادي في شوارع المدينة مكان بعد مكان كل من كان عنده صنم يكسره ويقول أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى أعلى كلمته العليا، وأظهر دينه على الأديان في كل ناحية ومكان قال الراوي ثم إن الإمام أمر بإحضار عرفجة ابن راس الغول قال له أنت تكون سلطان في هذه المملكة وهذا الوزير يكون وزيرك ومشيرك قال الراوي فقلق عرفجة على أخيه مقلقل فاستدعى الإمام بإحضار أكابر المملكة جميعا وبايعهم وكانوا الكل صاروا مسلمين وبايعهم على التحقيق وأوصاهم أن يكونوا على قلب واحد وترك عندهم من يعلمهم شرايع الإسلام ويعلمهم القرآن وغير ذلك وتمت غزوة راس الغول ، اكتتبها جار الحرم سعيد بن زاهر الخثعمي غفر الله له ولوالديه ، وتمت كتابتها نقلا في آخر يوم من أيام محرم الحرام من عام ١٢٣٨ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

فتوح وادي السيسبان

قال المعلم : اعلم أنه كان في الوادي الحلّي أمير يقال له جفال من كبار الشجعان، وكان له أربعون ولداً، وكان يسمع عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يؤمن به ، بل يتخذه هزوا ، فقال له من معه : اتق قوة هذا الرجل القرشي الهاشمي وأصحابه من المهاجرين والأنصار، فضحك وحثى بالتراب في وجه قائل هذا الكلام، ثم زأر وقال : فمن هو أشجعهم الذي تهابه الرجال وتخشى ملاقاته الفرسان والأبطال؟ فنهض واحد من جلسائه وقال : أخبرك وتعطيني الأمان أيها الأمير؟ فلما أعطاه الأمان قال له : شخص يسمى علي بن أبي طالب لا يقدر عليه أحد لا في العجم ولا في العرب. فقال جفال ولا أنا؟ فقال له: ولا أنت ! قال جفال سأذهب إلى الحجاز وأقتل عليا هذا وآتيكم برأسه في قلصي هذا، وسيخرج معي كل أولادي فإما رأسه وإما الفناء .

قال صاحب الحديث : فخرج في أبنائه الأربعين راكبين خيولهم قاصدين الحجاز، وقد ترك ابنته حسناء على الوادي، وذهب فالتقى في الطريق بسيدنا علي رضي الله عنه، فلما اعترض طريقه أخبره بمراده فقال سيدنا علي : لو أسلمتم لله الواحد القهار لظفرتم بجنة عرضها السموات والأرض ، ولكنتم عونا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكسبتم حياتكم وتركتم لي حياتي فأي ظفر بعد هذا ؟ فزأر عدو الله جفال ونطق كفرا وأبدى طغيأنا وتجبرا ، فقال سيدنا علي : فأنتم جمع وأنا واحد ، قال واحد من أبناء جفال وهو أشدهم : البراز إذن .

قال الراوي : فتبارز سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن جفال برهة حتى بدرت بادرة من علي فضرب عدو الله ابن عدو الله ضربة شطرته

شطرين فخر صريعا ، ثم قال سيدنا علي : هل من مبارز : فخرج إليه ثان وثالث ورابع وخامس حتى أكمل منهم العشرين ، فأرعد عدو الله جفال وأزبد وتوعد وهدد ثم نزل للبراز فمكن الله سيدنا علي منه فقتله وعجّل به إلى النار .

قال سايق الخبر: فلما رأى بقية أولاد جفال أن أباهم قد شرب كأس الحمام وأن إخوتهم قد سبقوه تعذر الكلام ، رفعوا الخرقة البيضاء وقالوا لسيدنا علي : أمنن علينا بعفوك يا فارس بني هاشم وسنعود لقومنا فنأتي بهم مسلمين ، فقبل منهم سيدنا علي ذلك وتركهم في رجاء إسلامهم و إسلام قومهم أهل الوادي الحلّي .

قال المعلم اعلم أن أولاد جفال قد عادوا إلى ديارهم ، فقصوا على قومهم ما كان بينهم وبين سيدنا علي ، فقالت أختهم حسناء : ما أرى إلا إتمام ما كان منكم من كلام ، والدخول في ملة الإسلام ، فما أتمت حسناء هذا الكلام حتى علاها سيف أخيها الصمصام ، فنهض أخوه الذي وعد سيدنا علي بالإسلام وقال : قتلت أختك يا عدو الله ، فعلاه بالسيف فألحقه بأخته ثم قام الصمصام بن جفال خطيبا فقال : أنا اليوم أمير الوادي الحلّي ، وإني لمستنصر بخالي الغطريف أمير وادي السيسبان وبسائر القرايا والبلدان.

قال الراوي : أخذ الصمصام بن جفال عياله وحلاله ثم قصد خاله ، أمير وادي السيسبان فلما وصل إليه قال له: يا خال ما أذوق عندك لا ماء ولا زاد حتى تقبل جيرتي وتقيل عثرتي ، قال الغطريف : وصلت وخاب من أرادك بسوء، عندها نزل الصمصام عن جواده وتواطى على الأرض بعياله وحلاله عند أقدام الغطريف ، ثم قال الغطريف : ما خبرك يا بن الأخت ؟

فقال الصمصام : تعرف أن محمدا العربي القرشي قد خرج عن قومه فلما حاربوه توزّى المدينة فقويت شوكته ، ثم كر على قومه وربعه وقتل أرباعهم وساداتهم ثم ذكر له خبرهم مع علي ، ثم ما كان من أخته حسناء ومن أخيه.

قال الراوي : فلما سمع الغطريف هذا الكلام استقام في جبهته عرق الغضب، وأظلم وجهه وزأر و جغر ثم قال : نحن لها ، من يكون هؤلاء الناس ؟ أقسمت بدم ابن عمي وصهري جفال لآخذن بثأره وثأر أبنائه ، سأجمع الجموع ولن يمر الشهر إلا وقد تهيأ لي أربعمائة ألف رجل ، من كل فارس ومناجز فأذيق محمدا وابن عمه طعم الموت وأسقيهم كأس الحمام ، ثم التفت الخبيث إلى عبده كندار وقال له : يا كندار بلغ أهل وادي السيسبان ومن كان في عهدنا من تالي القرايا والشعبان، أن تلبس نساؤهم السواد، وأن يكنّ في حداد، حتى يطيح الخلاص وتتطارى به الملوك والقواد.

قال المعلم : اعلم أن خبر الغطريف قد بلغ يثرب فاستهال المسلمون مما سمعوا ، وأشفقوا على الإسلام من سطوة الغطريف وجيشه المخيف، ورغبوا في مقابلة سيدنا علي لأنه على بينة من الأمر منذ قطع جفال عليه الطريق، ولكن سيدنا علي رضي الله عنه كان في مكة، فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا المسلمون يا رب علي أغثنا بعلي.

قال صاحب السياق: كان سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه في مكة في منزل عمته عاتكة رضي الله عنها كان نائما ، فإذا به قام وعرق الغضب بين عينيه، ثم إنه استوى جالسا وهو يقول لبيك وأنا أصل إليك، قالت عمته : ابن أخي مالك صحت هذه الصيحة قال: يا عمتي رأيت مناما أهالني قالت: يا ولدي وما الذي رأيته؟ قال: رأيت فيما يرى النائم كأن أربع مائة ألف فارس قد دخلوا المدينة وقد قتلوا رجالها وأبطالها ونهبوا أموالها ، قالت هي

أضغاث أحلام يا علي ، قال : مهما كان لا بد لي من الخروج إلى المدينة، والمسير إليها إن شاء الله تعإلى، وأنا عازم على ذلك في هذه الساعة ، قالت له عمته: ما امن عليك أن تخرج إلا في الليل فإني أخاف عليك من أهل مكة، قال سيدنا علي : لا أخرج من مكة إلا بالنهار كما دخلت .

قال المعلم : اعلم أن سيدنا علي قد سار من وقته وساعته حتى وصل المدينة ، وفي المدينة علم الناس أن عليا سوف يسير لملاقاة الغطريف، وقد تم أنتداب بطل من أبطال الإسلام وصنديد من صناديده هو عمرو بن أمية الضمري ليستطلع وادي السيسبان ومن فيه من جيوش الكفر والطغيان، ومن خاوز معهم من لمات العربان.

قال السايق: قبل الضمري الأنتداب وقال : أنا آتيكم بالخبر اليقين من أوله إلى آخره ،فأمسى ليلته ولما أصبح صلى مع النبي صلا ة الصبح وشد على جواده وسار فوصل إلى ذاك الوادي مثل ساعته تلك من اليوم التالي، فلما أشرف على وادي السيسبان فإذا هو واد أخضر، كأن المسك نابت من أطرافه، وسواقيه متفرقة وأشجاره عالية وأثماره متدانية وأغصانه آبقه وأطياره ناطقة ببديع الأصوات، فيه البلبل والكيروان، وفيه الكبد والقمري رعيبه يصم الآذان، وكل ذات فرخ قد فرخت من كل مكان، والهدهد واليمام والحمام، والأطيار يتوارين في الأغصان ويتحاوين الأثمار، مثل العنب والعناب، و العنقاص والتين، والفركس والتفاح، وأنواع النخل قد تلألأ بالقضب والرطب، والليمون والنارنج، والياسمين يعبق بريحته من كل مكان، والبرتكان والرمان، قد مال بالأغصان، والخيرات في ذلك الوادي فيه من الأثمار المختلفة ومن كل فاكهة، وأن الأغصان مشتبكة بالأغصان، وعلى حفة ذلك الوادي من الأنهار، وذلك الوادي فيه من الأصناف الوحوش والضباع واللواقح من كل غاد

ورائح، ماؤه سكر وصحائفه جوهر، ورائحته كالمسك الأذفر، وفي علوّ ذلك الوادي أربع مائة ألف فارس من كل بطل مداوس، وعلى المطرح علامة، وعلى باب المطرح كرسي من الذهب الأحمر، مرصع بالدر والجوهر، وعلى ذلك الكرسي شيخ كبير، وبين يديه تسعون وزير، وعدة قومه أربعماية ألف فارس، وهو يقول لمن حوله: اعلموا يا قوم أني جمعت العساكر والجيوش، حتى جمعت أربعمائة ألف فارس، وأربعة وعشرين ألف سواهم، فما كفاني هذا الجمع حتى أني جبت النسوان والصبيان والعمات والخالات، كي آسر محمدا وأقتلعه من المدينة، وأقتلع معه صحابته أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ومن فرسانه الأشداء أربعين، ليقتلهم الصمصام ابن أختي خلاصا في أبيه وأخوته.

فلما رأى عمرو ما رأى، استهال مما رأى، فعاد سريعا للمدينة وأخبر المسلمين بما قد جرى وبما رأى في ذلك الوادي، وقال لهم:إن أدركتم بطن السيسبان قبل أن يدركه الغطريف فالظفر حليفكم ، وإن سبقكم إليه الغطريف فالعزاء فيكم، وإن جاء بينكم وبينه فالحرب سجال بينكم وقد تطول.

قال الراوي : عزم سيدنا علي رضي الله عنه على المسير ، فاستأذن حبيبه القمر المنير، صلى الله عليه وسلم، وكان مما قاله له :اركب ناقتي ثم امض إلى اليمن فإذا وردت عقبة أفيق ورقيت عليها رأيت القوم مقبلين يريدونك فقل يا حجر يا مدر يا شجر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام. ثم سار سيدنا علي بجيشه اليوم الأول والثاني والثالث، فلما أشرف المسلمون على وادي السيسبان وقد أغربت الشمس، حطّوا رحالهم ، وباتوا تلك الليلة فلما أصبح الله بالصباح وأضاء بنوره ولاح، وطلعت الشمس على روس البطاح، برز من ذلك الوادي عسكر مثل الجراد قد سد السهل والوعر، كأنه السيل إذا

سال والجراد إذا هال، سد الوعر والسهل، وله بنود ورايات، وقباب وعماريات، ومقدم الجيش دليل عارف بالمعاقل، عارف بالأسحار والقفار، يحتاج إليه الملوك والتجار، وإلى جانبه فارس مقدم، تحته جواد أدهم، له يدين كالقلم ، وكفل كالبرسم، دقيق الخدين، مقرون الأذنين واسع الخطوين، له غرة كالمصباح، قد شرب لبن اللقاح، وربي في أحسن براح، إذا هم يسبق الرياح، وإن سكن زاد في الصدر الانشراح، والفارس على جسده ثوبان من الديباج، وعلى الغطريف قميصان من الزمرد الدقيق العال، وقد نقل سيفا يدرأ العار، ويدرك الثأر، ويحفظ الجار، صارم بتار، يقتل الغريم النهاب، وإن ضرب به قطع جناح الذباب، رقيق النصاب، سريع نزوله لا يعلق عليه الصدأ، وحول الغطريف تسعون وزيرا وعدة قومه أربعمائة ألف فارس وأربعة وعشرون ألف قاعس.

قال الراوي : فلما نظر الغطريف إلى جيش المسلمين أخذته العزة بالإثم، وأظهر استخفافه بهم فنادى وزيره العجّام وقال : يا وزيري، إني أرى شرذمة قليلة غير كثيرة وأراهم قلائل، كأنهم رعاية بل، عليهم قطعان الخيش وبيدهم جرائد النخل، يا وزيري عندي عبدان أسودان، واحد اسمه كندار، والآخر اسمه سياف، الذي جميع العرب منه تخاف، وهو محسوب في ميدان الحرب بسبعة آلاف فارس، لو أرسلت واحدا منهم إلى هذه الشرذمة أتاني بما طلبت، فعند ذلك قال الوزير: يا سيدي الغطريف سليل الغطريفين، ذكرت عبدين أسودين يفعلان ذلك، ولم تعلم أن فيهم مثل خالد بن الوليد ، وعمرو ابن معدي كرب ، والمقداد وابن الخطاب وعلي ، ممن إذا كانوا بالمشرق اهتزت لهم المغرب، وكل مفرق كتائب، ومظهر عجائب، وليث غالب، وأعلم يا أمير وادي السيسبان أنه ما في هذه الشرذمة لا صغير ولا كبير إلا خرج بنفسه طائعا مختارا، يطلبون

النصر أو الشهادة، قال فالتفت الغطريف إلى الوزير وقال: يا وزيري، مالي أراك توصف فيهم كأنك منهم وربيت معهم؟ قال الوزير العجّام :إنما قلت ذلك لتحتاط لأمرهم ، وتقيس قبل الغطيس، قال الغطريف : تشوف ما يكون منا ومنهم غدا.

قال المعلم : اعلم أن عليا رضي الله عنه بعد أن استقرأ نذر الحرب ، عمد إلى جيشه فقسمه ميمنة وميسرة ومقدم ومؤخر، فوضع سيدنا خالد على الميمنة وسيدنا المقداد على الميسرة، وسيدنا عمر على القلب ، وسيدنا عمرو بن معدي كرب الزبيدي على الساقة، فعند ذلك اصطفت الصفوف، وجذبت السيوف، وظهر الخوف، وتقدم كل فارس موصوف، وتبين كل بطل معروف، وكأنت القوم ما منهم رجل إلا على القوم ملهوف، وبالضرب مشغوف، وقد وكدوا القوم ميمنة وميسرة، ووقفت الرجال قبال الرجال، والخيل قبال الخيل، وتضاربوا بالسيوف الصقال والقنا الثقال، وتعلقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال، واشتد القتل وعظم بين الخلق، وزعقت البرقات ودقت الكاسات، فما كنت تسمع إلا ضجيج وصياح، وهمهمة من كل بطل جحجاح، ودام الكفاح وحشر الجراح، وخرست الألسن الفصاح، وجرى الدم وساح، ونادى منادي القوم: تكسرت الرماح و تشكمت الصفاح ، وما زالت الرجال تقتل والدم ينزل ،ونار الحرب تشعل من طلوع الشمس إلى المغرب.

قال الراوي: مضى يوم الطعان الأول لا غالب ولا مغلوب ، وبات الناس ليلتهم حتى أشرقت الغزالة ، فصلى القوم على محمد و آله ، واستأنف الفريقان القتال ، فرئي سيف الله المسلول رضي الله عنه وقد طمّن راسه في كربوس سرجه وحمل حملة بمن معه من المسلمين وصاح في حملته: الله أكبر فتح ونصر وخذل من كفر وتجبر. فيا لها من ساعة طارت فيها الجمايم، ونثرت

العمائم، وتثلمت السيوف فما زالت الرجال تقاتل ،والدماء تسكب، ونار الحرب تلهب، من مشرق الشمس إلى مغربها.

قال المعلم : عند ذلك دعا من بين صفوف الجمع داع فقال: إلاهي وسيدي ومولاي هؤلاء عبادك يسيرون ويدينون على دينك، إلاهي ما على الأرض يوحدك ويقر لك بكلمة التوحيد إلا هذه الفئة، ثم انفصل القوم عن القوم وتنادى الجيشان للراحة .

قال المحدث : عندما طلع الصباح وأضاء بنوره ولاح ،اصطف الجيشان ، وقد عزم كل منهما على إهلاك خصمه، وبينما العيون تترقب، خرج من صفوف جيش الغطريف صائح ينادي: أنا كندار الأسد المغوار، يا رعاة الإبل هل من مبارز أو مناجز؟ فخرج له فتى من المسلمين فنال الشهادة ، وثان وثالث فلحقا به، عندها قال عمر أنا أخرج إليه فقال علي : والله لا يخرج إليه غيري، فخرج إليه ولما اقترب منه رأى عبدا عظيم الخلقة، كأنه البرج المشيد، غليظ الفخذين، صعب المراس، مجلل أسود ركبته كأنها جذنة، لا يرثي لكريم ولا يرحم يتيم، قوي الغضب ، قليل الرضى كثير الشر، قبيح المنظر، أسود شنيع الخلقة، عيناه كالعلقة، ما يحمله إلا فيل عظيم من كبر خلقته، وكان في مشيته يلعب بيديه ويمرح برجليه، فأخذ سيدنا علي رضي الله عنه يحاوره ويداوره حتى غفل العبد فحمل عليه سيدنا علي وأمسك بأذنيه فقلعهما من موضعهما، فبهت العبد وانهزم مسرعا نحو مطرح الغطريف ، ودخل عليه والدم يسكب على كتفيه فحينما وصل إلى سيده قال : يا مولاي، تبعثني إلى رجل مجنون قد قلع أذناي؟ فبصق الغطريف عليه وشتمه وقال له : يا كندار ، هذا علي ابن أبي طالب وهو غريمنا، ارجع إليه وعد به حيّا أو ميتا، فرجع العبد ثانية إلى ساحة البراز فالتقاه علي رضي الله عنه فتبارزا ثم انثنى عليه وضربه

بالسيف على رأسه أخرج السيف من بين فخذيه وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار.

قال الراوي : يا سادة يا كرام يا أفاضل الأنام، إن وزير الغطريف بسام العجّام عندما شاف مقتل كندار أقبل برأس جواد إلى عند علي وقال: ما أعظم أن يأتي بعد الكفر إيمان، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرح سيدنا علي رضي الله عنه.

قال المعلم : اعلم أنه لما سمع العسكر أن العبد كندار قد قتل ، والوزير العجّام قد أسلم، قال كثير منهم : نلتحق بالمسلمين فنشهد أن لا إله إلا الله ونشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فعلوا ففرح علي بذلك ، ثم قالوا: نقاتل معك هذا الغطريف الطاغية ؟ فقال علي : دونكم هو .

قال الراوي : فيا لها من ساعة طارت فيها الجمايم وتكسرت الرماح، وتثلمت الصفاح، فما عاد يسمع إلا الصريخ والصياح ، والضجيج والبكاء والنواح، وبعد ساعة ظهر في مطرح الغطريف من يقول : هلك الغطريف، أهلك الله الغطريف، وأسلم قومه، لكن عليا رضي الله عنه عزم على المسير إلى الوادي الحلّي، ومن بعده بلاد راس الغول.

قال صاحب السوق : سار سيدنا علي في طريقه ، فلما وجد عقبة كأداء سأل عنها فقيل له : هي عقبة أفيق يا بن عم رسول الله ، فرأى الناس مقبلين عليه من كل حدب وصوب ، فتذكر وصية المصطفى فقال :السلام عليك يا حجر يا مدر يا شجر رسول الله يقرأ عليك السلام قال فارتجت الأفق فقالوا على رسول الله السلام وعليك السلام فلما سمع القوم بذلوا فأقبلوا إليّ مسلمين.

وهذا ما أنتهى من فتوح وادي السيسبان وما فيه من القرايا والبلدان ، اكتتبته أنا الحقير الفقير عايض ابن اليتيم من أوراق في يد القاضي عمر غفر الله لي وله ولوالديّ ولوالديه ولكل من هلل وكبر من المسلمين أجمعين.

ملحق

نصوص مفرغة

عن تسجيلات صوتية حية

أبو قطنه

جاكم واحد(ن) ولا واحد إلا الله ، ومن عليه ذنب(ن) يستغفر الله ، وإنه يجيك ذاك الولد ما مَعَ أمه إلا الله ثم هُوَهْ ، يتحطب ويصرف على نفسه وعلى أمه ، كلما اصبحت خذ حبله فوق كتفه ومن شعب في شعب ، ولا جت الروحة باع ما جمع ، ومَعَه سِدْره حوالي البيت يِلا حَصَل فيها شويّة نبق لقَطَه وباعه يتصرّف به ، يعيش ويعيّش أمه ، هي كَسَرَت صِبَاها عليه ، وهو ما يفارقها ولا يقصّر بشان من شونها.

قعد إلى ذاك النهار ويوم راح البيت لا وإنها مسهّمه والحزن بادي في وجهها ، قعد جَنْبَها و أنتشَدْها ، وش بِك ؟ قالت : وش بني ؟ السدرة تيه تقطعها لا بِعِثَتْ ، قم خذ العطيف واقطعها ، لا تغمض عينك وهي بعد جوف الساحة .

قام ضعيف ربي ع العطيف وإنه يحده ويزينه ، وقيسه على السدرة ، وكلما ضربها بالعطيف قال لا بعثتي ولا بعث من يذّي امي .

قطع السدرة ولف عيدانها وهباها في حبله ذاكايه وَقَبَلُه على السوق ، ابتاع الحطب ، وهَبَا الدراهم في القُطْف وعوّد في قلبه كما طَشّة الضُوَاح ودّه يعرف وش اللي ضَيّق أمه من السدرة .

الْتَقَتُه أمُه فوق ثُمّ الباب ، قالت بيض الله وجهك وكثر الله خيرك ، وأنا إدري عنك أن ودك تعرف وش جاني من السدرة ، قال الله الله ، قالت أنا اليوم انْسَدَحْتْ في الحوش ما فوقي لا حوكه ولا ثياب يا مَعْنِي ستيره ، ويوم قُلْت بعَيني كِذَيْه ، لِيْتْ السدرة ، لن هذا الغُرَاب فَوْق السدرة ذِبْ يتْلَمّح

لِيتِي ، قلت إن الله يامن كشَف سترنا يكشف ستره ، والله يا متى ما يجي ولدي لا هَبُه يقْطَعِك يا سدرة بقعا.

هلل ولدها وكبر وانحنى عليها وسلَّم فوق راسَها وعلى خشمها وفي كفها ، ولعَن الغربان والسدر ومن يزيد يا هب السدر عند بيته .

والله و ياخذ الولد حَزّه ، ويوم جا نهارو ليت البيت في خاطره بِيْقَيّل ، تَوَخّر قليل ، ويوم التفت ولِنّ واحد يُدْرُجْ بَحَوايج النسوان يوم وقّف عند خَلْفَهم ، ولا درى ولن امه يوم فتحت الخلف وتمد أيدها وتسترق مشط ومكحلة من فوق راس الرجّال وهو ما شافها ولا درى عنها ، الولد ذهل مما شاف، أمه تسترق مشط ومكحلة ؟ وآهو أنهشر يبكي ، ويوم استرجع قال: أنا يا هنا، والله يا هذي الديرة ماعد أقعد فيها .

أفلح على راسه يطلع شعب ويندر شعب لِيْن وقّف على رِيْع يهُدّ في قرية كبيرة، ما درى إلا وحامي القرية واخوياه يوم شَتّبُوه وداروا كتافه ، أنبهت منهم، قال وش بكم ؟ أنا وش سويت ؟ قالوا ما ندري عنك ، كبير موامين قالوا : أول من يجيكم اليوم الزموه وتعالوا به .

أفلحوا به لا عند كبير الموامين ، قال : يا ولدي ما شي خِلاف إن شا الله ، شيخنا كأنت معه نعامة ، ثم تسلطوا عليها السرقان واسترقوها ، دَوّرْنَا لها في كل مكان ، ما خلينا مَدْوَر ما دَوّرْنَا فيه ، ولا لقيناها ، جا الحسّاب قال يا شيخنا هذي النعامة ما يدِلّك عليها إلا غريب يدخل القرية مع أول ثريا الخريف من ويلا الشعب الشامي ، وأنت يا ولدي غريب ، وأول من دخل القرية من الشُّعب الشامي ، مع أول ثريا الخريف ، قال الولد : لكن أنا يا عمّ لا شفت النعامة ولا قد جيت قريتكم تَيْه ، لكن مدخلي عليك فُكّني منها

والمِحُوا لغيري ابْصَر مني بالنعامة وبالديرة وسُرْقانها ، قال المامون : ما مَعْنا غيرك ، ما غير افْلِح والله أعطاك لِين يجيك عنها علم.

مِنْ ذِيك الساعة والْوَلد معزّز مكرّم ، ما يمشي إلا مع كِبار العمايم ، مع الفقيه ، و الموامين ، والشيخ ، وذاك النهار يوم جا العيد ، قالوا تَلَبّسْ يا ولد، بتْرُوح مع الشيخ تصلّون العيد ، تلّبس الولد أحسن لباس وتساير مع الموامين وقَيْسَهم على الشيخ وترافقوا كلهم للمشهد.

وِصِلوا مصلى العيد ، وأقعده الشيخ جنبه ، وكبير الموامين جنبه من الشق الثاني ، وشوّيه لاو إنّ ذاك الرجّال يوم أقبل عليهم ، لا وان بطون أقدامه ملبسه بالقطن ، التفت الشيخ قال للولد : هذا يسمونه أبو قطنه ، سموه أبو قطنه عشان القطن ذا ياهَبُه في بطون أقدامه حتاه لا يدهك النمل ، رجال تقي الله ربنا وربه ، يِصَلَّى فوق ثيابه ، حتى النمل ما يبغي يوذيه ، قد شفت مثل المخلوق ذَيْه بالله عليك ؟

هطش الولد بالكلام فقال : نعم شفت ، أمي كان يِصَلَّى فوق ثيابها واسترقت مشط ومكحلة ، و آهو هو ذا استرق نعامتك ، أبو قطنة ، قَطبَّه ، ألزمه والله ما استرقها يكون هُوَه .

ضاق الشيخ من الولد ، بَغَتْ تَقَطّع بنَايْقُه ، قال أخرجوا المروح ذيه من هنا ، ردوه من حيد جا ، ذَيْه قليل وَدَبْ ، فقاموا عليه و أشْتَلّوه وأخرجوه ورموا به من ورا الشُّعب الشامي .

النّهَار التالي قعدوا الموامين مع الشيخ ، قالوا : أنت وش قصتك مع الولد ذَيْه ؟ انحن جينا به لا عندك لجل يدلك على السُّرقان ، وأنت تا هب عاملك يرمي به من ورا الشعب الشامي ؟ قال الشيخ : ما سمعتم السَّكْن ؟

يتبلى على أمه ويتبلى على أبو قطنه ؟ وأنتم تعرفون أبو قطنه مسكين ، حتى النمل ما يتْوَذَّى منه .

قالوا يا شيخنا أنحن مشينا على كلام الحسّاب ، والراي أنك تلمح عن أبو قطنه هذا ، سبحان الله ما حد يدري وش سَدّ البيبان ، ان كأنت النعامة عنده ، فحق(ن) صاب ، وان لا تبنا وما خاب مومن(ن) تاب .

يقولون إن الشيخ زاد استلحق أبو قطنه وخذ معه وأعطى الين استقر بالنعامة ، ثم قال الشيخ : تعالوا بالغلام المشبب ذا دلنا على السراق .

دوروا عليه شام ويمن ما طاحوا عليه ولا على طاريه ، وما ساع ما جيت من عندهم وهم بعد يدورون عليه ، وهذي رويتي والسلام .

وادي شباعة

جاكم واحد(ن) ولا واحد(ن) إلا الله ، ومن عليه ذنب(ن) يستغفر الله ، قالوا كان فيه واحد من الأولين ، زرّاع يحب البلاد ، يسرح جهمه مع الطير ، ولا يروح إلا على أول ليل ، يبني السدود والوداف والركايب ، يبشّر ويبني ويعلم أولاده كل مهره حلاه ، خذ واديهم ذاك ألين ظَلَّى يغِلّ الذهب الأحمر، ويوم شبعوا من الخير ، سماه وادي شباعة .

أقفى زمان وجت أزمان وهم في واديهم والله هاديهم ، تشبع معهم الطير والقانع والمعتر والقريب والبعيد ، يوم جا هازم اللذات ومفرق الجماعات وينتزع بوهم من بين أيديهم ، حزّنوا عليه الأولاد ، وبكين عليه البنات ، وغسلوه وكفنوه ثم دفنوه وكل حي إلى زوال .

قاموا العزا على بوهم ، والتفوا الناس من كل مكان ، من الأرحام ومن العواني ومن الصدقان ومن المقاطيع اللي كان يواصلهم في حياته ، ومن صدقان الأولاد ، ومن صدقان الصدقان ، وذيا حال الفقيده .

ثالث يوم من أيام العزا لفاهم رجال(ن) شُرّبَه تجي شبر شبر ، ما هِلّا بَدَى عليهم وهو يرمي بنفسه عند ارجولهم ، ثم قام يلطم وجهه ويحثي التراب من فوق راسه ، تفازعوا الرجاجيل وشالوه ، عرفوا أنه صديق(ن) للمرحوم ، صبّروه وذكروه بالله ، وكلما فاق غشي عليه مره ثانيه ، الحاصل الله ربط على قلبه وقام الين قعد في صدر المجلس .

أعطاهم العلم ، وقال إنه صديق للمرحوم ومن أعز صدقانه لكن الأيام باعدت بينهم لا سقى الله زمان(ن) يفرق بين الأصحاب ، ثم نشد عن أولاد

الميت ، يوم عرفّوه بنفوسهم ، قال يا حباني ، لكم عندي وداعه من أيام والدكم الله يرحمه ويجعل مثواه الجنة .

قال الولد الكبير ، وش هي الوداعة يا عم ، بلغك الله كل خير ، قال : أبوكم دفن لكم دفينه ، كنز ، ذهب أحمر ، دفنه تحت واحد من المعارق هاذي ، قال الولد : أي عراق يا عم ، المعارق كثيرة ، قال : والله إني نسيت ونا عمك ، لكن الدفينة تراها جيدة ، تغنيكم وتغني سابع نسل من نسولكم .

راحوا المعزيّه ، كلن لقّى له درب(ن) ، وقعدت هرجة الرجّال أبو شُرَّب تدرج على كل فم ، قال الولد الكبير : أخاف أن الكنز هذا ما منه شي ، وأخاف أنا حتى لو لقيناه ما بيعطي على عمار المعارق اللي بعد تنهدّه ، قال الأوسط : ما شاء الله عليك ، نخلي الكنز عَ سِبّ سُفَّة حب ؟ قال الصغير : آشوف أنا نهد المعارق ، إن لقينا الدفينة فيا سلام ، وإن ما لقيناها ، بنيناها بأحسن من بناها الأول ، كم لها من يوم بناها القحم يخواني ؟ .

ابن الأملس قريب(ن) منهم ، وابن الأملس رجّال(ن) فطين(ن) وراعي حكمه ومعه صدق(ن) للأولاد لجل انه يحب بوهم من قدام ، قال يا ولادي تعوذوا من إبليس ، بالله عليكم يطْرا في عقولكم إن بوكم أبْيِعِلِم واحد(ن) من طرف الناس بعلمن(ن) ما يِبْدِيْكُم فيه ؟ بوكم بنى وادي شباعة مِن فوق لا بَاطِنْ، ما يبنيه قبيلة، و يدُسّ فيه دفينة ولا يعلمكم بها ؟ فين عقولكم يا حباني ؟ والرجال أبو شُرُّب ذيا تعرفونه ؟ قِدْ ريْتمُوه ؟ والله ما قد حقّتَه عيني من يوم خلقني ربي ، فأنتبهوا ، وش معَكُم ؟ أنتبهوا لشقْوَة بوكم وتَعَبَه ، تضيعونه بين غَمْضَه وفَتْشَه ؟.

أصبحوا في صباح(ن) أغبر ، وسرحوا بالعَتَل والمساحي والمناقب ، خِذُوا لهم من الجماعة كل أفتل ذراع أعمى بصيرة ، وهدّوا مَعَارِق وادي شباعة ، من

علّوه لا أسفله ، لا لقيوا دفينه ولا سلمت المعارق، وراس الدور يعُجّها جادح السيل، ما بقي في الوادي إلا الصفيان والعجام .

بدا ابن الأملس من قلّة الجبل ، ويوم بدا لاو ان الحال ما يسر لا عدو ولا صديق ، والْتَهم صاحبه وهي تدمع عينه ، قال :

يقول ابن الأملس ويا صرم حالي

صريم الرشا في الدرج و المحالي

صرام الحيا في رياض مريعة

حوتان

يقولون كان شي في سابق الهجرة رجّال خذ الكُذَاب طبيعة ، يتْعوّش على الكذاب ، ولا صادف عاقل يرَدِدْ له ذهايب عقله ، وإلا مشَبّبْ يوريه طريقه .

ما دروا ذاك النهار إلا وهو يصيح وسط السوق ، يا سما هب لي بلح ، يا سما هب لي لبن ، يا سما هب لي بلح ، يا سما هب لي لبن، وشي معه حلّه وطّاها تحت سَرَبُو ثمّه ، وسَمّى : يا سما هَبْ لي بلح ، يا سما هبْ لي بلح .

معه رفِيقُوا فوق ظهر البيت ، يوم شاف الناس التفّوا وهو يعَدِّي يِسَارِقْ البلح شوية شوية من جوف السَّرَبْ ذاك لين امتلت الحَلَّة ، وذاك الكذاب أخرج الحله الملانة ، وهبا مكانه غيرها وصاح : يا سما هب لي لبن .

امتلت الحلة لبنو، ويوم شافها واحدو من الهبّاطة قال يا خي وش تا السواه معك ، طلبت بلحو وجاك اللي أمْلَى حَلّتَك تَيْه ، وطلبت لبنو ، وجاك اللي يسُدَّك ويسُدّ جماعتك ، أنت وش قصتك بالله ؟ قال الكذاب : والْعَسَلْ ؟ آهَبْ لكم عَسَلو ؟ وآهو صَعَقْ : يا سما هَبْ لي عسل ، يا سما هبْ لي عسل .

ما ابْطَى لاو انّ العسل يدَهْرِب من جَوف السَّرَب ذاك ، صب العسل صَبّ صبّ لِيْن امتلت الحلة وآهو ناولْهُم ، قال والله و الله يا هذا العسل إِنّه كرامة لحاكم ، تواردوا عليه وكِلوا مِنِه لِين صرَّت أذانيهم .

قام واحدو من الهبّاطه ، قال يا مخلوق ، قال هيش ؟ قال ذا الحين انحن ما ندري ، هذي حكمه منك ، والا سَرَبَك ذيه فيه شي ، والا أنت تقرا على عيوننا والا أيش ؟

قال الكذاب : كل ما شافت عيونكم ، والله والله إنه ما جا إلا من ذيه السَّرَب ، يوم سمعوا كلامه انْبَهَتُوا من السَّرَب ، قام واحد أهْطَل لكنه قُرُوشَه الخير، سَكْنُوا فَوْق غَلَّه ، قال : ودك تبيعني السرب يا مخلوق ؟ قال ما جيت به السوق إلا ع سَبّ أبيعه ، لكن آي قيمته جيره .

قال : كم هي قيمته الجيره ؟ قال خمسمية فرانسي فضة بيضاء من نقد البلد ، قال شَرَيت ، هَاك الدّرَاهِم وهات السَّرَب ، وهو يعدّ له: واحد اثنين ثلاثة وهذي خمسمية .

استعد الدراهم ، هِمّ طق بها في الحسكل ، قال هيّا اطلع الله لا يهينك ، افتك السَّرَب ورُحْ به بيتك الله يعوّض عليك ، بي تحَصِّل فيه خير ، وذاك طِلِع من ساعته افْتَك السَّرَب ، هباه في كيس النّوم ، وارتدّ الكِيس فوق كِتْفَه واقفى .

يوم طما والسَّرَب يدْلَح فوق ظهره ، جا رفيق الكَذّاب وشريكه في الكُذَاب ، قال هات حسابي معك ، ويناوله حسابه من قيمة السَّرَب ويلْتِقِط نفسه ويفْلِح .

اللي باع السَّرَب يدري أن اللي اشتراه بيَغْدي يجَرّبَه وما بيَلْقَى مِنَه خير ، قال أنا بَغْدِي أدَبِّر بُخْقَه ثانية ، إن جاني يشتكي من السَّرَب انْزَيْتُوه فيها ، وإن الله صَرَف وَجْهه عني بَ القَى غيره .

دعا صبيته ، وقال المحي : أنا با شتري عنزك ذيك ، وبأذبحها ، وباخذ معيها أمليه دمو ، وأحويه على رقبتك ، ولا جا المشدوق بأزين اني اذبحك ، بأبذح المعي بالسكين ولا ندر الدم من المعي صيحي وموتي ، قالت : ازهلها.

في النهار التالي لاو اِنّ اللي اشترى السَّرَب يدق الباب ، افتح يا ملعون عليك لعنة الله والملائكة والناس إلى يوم الدين ، فتح له وهو يفرّك عيونه ، قال

يا خي وش بك صَجَيْتَأنا ولَجّيْتَأنا، أنت صَاحِي والا في عقلك تِخِلّه؟ قال التِخِلّة في عقلك، يا قليل خوف الله ، تبيْعَنِي سَرَب وتضْحَك بي؟ تقول يصب عسل ولبن وهو ما يصب حتى رماده في وجهك يا كَذّاب.

قال يا رجّال ادخل تَقَهْو ، وبعد القهوه تِنْقِضِي كل حاجه ، والله ما تِغْدِي لين تَقَهْوَى مِعِي ، هِمّ لا تقهوينا نلْمَح ونشوف ، إن كان السَّرَب يِتْسَوَى سوّيناه ، وإن كان يتغير غيّرناه ، الغلط مرجوع وأبشر بما يرضيك .

جلسوا في المجلس ودارت الْلِسِنَه بينهم ، لكن القهوه أبْطَت عليهم ، فقام من فوق باب المجلس يزاعِمْهَا ، قال والله لن ما جَت القهوة قوام لَ اقْطَع راسك بالسكينة ،قالها وعوّد قعد مع الرجّال، قال يا خي وش ذا الجُبْر فيك ، تذْبَحْها عَ سِبّ دلة قهوة ؟ الله لا يعيدها من قهوة .

ردوا الهِرْجَه ويلا السَّرَب ، ويوم تمَثْنَى العلم وهو يِفِزّ ، ويِنْدِر السكينه من حِزَامه ، قال: الملعونة هذي ما بَتسْمَع الكلام لِيْن أشَقِّقْ وجْهَهَا بِتَيْه السكّينة ، قال الضيف : تعوّذ من ابليس يا خي ، لكن مالان ولا انثنى ، قال فُكّنِي عليها أنا مانب صادق ، ماهلا بأهيب عليها بالسكينه ، ولو خمشتها السكينه والا لو ذبحتها معي لها دوا .

شوية الرحمن وإلا الصياح ، وإلا إن بقعا واريه ، بينه وبين صبيته ، ارتفع الصوت ، والضيف يلازم نفسه ، مره يصل لا عند الباب ومره يعود ، لكن الْمَرَه صاحت صيحة تخرع من سمعها ، يوم صاحت والضيف يخرج من المجلس ويستقيم بينهم .

يوم بدا لاو إِنّ اللعين قِد كَعَر صبيته ، وذِبْ يِنْحَرْهَا على غير قِبْلَه ، والدم يدَهْرِب مِن جَوْف رَقَبَتْهَا ، صاح عليه بالصوت الصَلِيب: تَرَاك في وَجْه الله اِعْتِقْها، تَرَاك في وجه الله ارْفَع السكين عنها يا مسلم.

يوم شاف الصَّبِيّة تَفْغَرْ وتُبْصُم ، ودَمْهَا يَثْغَب ، يِيسَتْ شَفَاياه ، وحِزِي بريقَه ، قال: قتلتاها ؟ قتلتاها ؟ قتلت أم عيالك يا قليل خوف الله عَ سِبّ دلة قهوه؟ نعلك الله، وآهُو انْهَشَرْ يبكي ويَشْهَق ، شَهَق لِيْن بَغَا يَنْفَت قلبه .

الرجال زَقَى بالسكين فوق جثة صَبِيّتَه ، وخَذْ ضيفه بِيْدَه وراح به المجلس ، قال أنت وش بك خِرِعْت يا خَرّاع ؟ ما طاقْ يرُدّ عليه مِن الشهيق بِيْشُقّ صَدْرَه ، قال : اصْبِر عليّه شُوَيْه وتشوف شي (ن) ما شفتاه.

تقدّم الرجال وَيْلا بِدايَة معه ، وآهو صعَق : حُوتَان ، حُوتَان ، مِحْيِيَ المِوْتَان ، وشْوَيه إلا وذاك الْبَسّ يوم انْقَلَط عليه مِن البِداية ويَطْلَع فوق كِتْفَه ، الضيف ذا الْحِين ذِبْ يتْفَرَّج في هاذِي العَجَايب ، وآهو قِرِبْ مِنِه ، قال : كيف تقول مِحْيِيَ المِوْتَان ؟

ضِحِك الْكَذّاب وقال ذَا الحِين تشوف بعَيْنَك ، وخَذَه بِيْدِه ، وقَيْسَهُم عَلَى جُثّة الصّبِيَّه ، وآهُو صَعَقْ : حُوتان، حُوتان، مِحْيِي الموتان ، والبَسّ مِن سَاعْتَه ، سمّا يدْرُجْ حولها ، لِين وقّف عند رقبتها ويِسَمّي يلُوق الدم ، لاق ، لاق ، الين بَرّا الدّم ، ويوم بَرّاه وهِي تِفَتِشْ عينها ، فَتَّشَت عَيْنَها واسْتَقْعَدَتْ كِنَّها ما كانت إلا رَاقِدَه .

هلّلُوا وكَبَّرُوا ، وهي قامَت تِطِيح وتْقُوم لِين غابَت في أقْصَى البَيت ، والبسّ قعد من حيد ما كأنت ، يتْلَحّس الدُمْيان ، وهُمْ تَقَاطَبُوا بَ الأيدِي وراحَوا المجلس ، والضيف يقول يا ربي لك الحمد ، وأما راعي البيت فيقول : خَلّهَا تَتْرَبَى.

دخلوا المجلس ، والحقيقة أن اللي اشترى السَّرَب نِسِي وقْعَتَه في السَّرب مِمَّا شافَت عينه اليوم ، وما عَدْ في عقْلَه شي يكون ذاك البَسّ الأسود .

وش ذا البَسّ الأسود العُجْبَه؟ مِنِين جَاء ؟ وش سَنْعه كِذا ما جا كما بِسَاس الناس قليلة نَفْعَه ؟ هُوْ مِنْ بِسَاسَنَا والا مِن بِسَاس الجُنّ ؟ شَيْ غَيْرَه كَمَاه ؟ لا يكُون البَسّ مِن طَرَفْ بِسَاسَنا واللي شَافَتَه عيونْنَا ما هِلّا سِحْر ؟

آخِر مقْعَد النّقْوَى قال الضّيف يا خِي ودِّي تبيعني بَسّكْ ذَيْه ، والله إنه عُجْبَه ، قال: يَفْدَاك ، قال: فِدَاك الّلاش ، ما غَيْر إعْلِمْنِي وشْ يصَحِّيْك فِيه ؟ قال : الْبَسّ يا حبيبي بَ الفين فرانسه فضه بيضاء من نقد البلد ، هات ألف وخمسميه ، وأما خمسمية والله إنها خسارتك في السَّرَب.

قال الضيف اللي شرا السَّرب : الله يبْري مِنْك ، السَّرَب عساه فِدا وَطَاياك في الْحَيْلة ، والله لَ أوْفِيْك حقك الفين ريال بالتمّ والتمام ، أعطاه الدراهم ، وذاك خذها وأعطاه البس ، قال والله إني خجلان منك ، لكن الله يعوض عليك.

خَرَج المِضْحَكَة والبسّ فوق كِتْفَه، وسَاع ما خَرَج دخَلَتْ صَبِيّة الكذاب وهي بتتشدّق من الضِحك ، قالت: مَسَحْتَاه بَ الفين ؟ يا ويلك من ربي ، هيا قوام ،هات حسابي ، وهات قيمة عنْزي اللي ذَبَحْتَاها ع سِبّ تاهَبْ معيانَها في رَقَبَتِي.

ضِحِك لِين بَغَا يتشدق ، قال أبشري بَسَعدِك ، لو ما هو أنتي ما ضِحِكْت بالمشدوق ، لكن بَ نِبَدِي نَعْطِي راعي البيت كِرَاه ونَفْقَعْ من هاذي الديره ، والله لِنْ دَرَى عن البَسّ لِ يُوَطِي فينا ذِبْحَه ، لكن أَرْجُولنا تِنْجِيْنَا .

شرد الكذاب وصَبِيّتَه ، أما اللي اشترى البسّ، فمِن ساع راح بيته ، دعا صَبِيّتَه ، قال تعالي بِ سَكِّينَه الله لا يهينك ، جت بالسكين وَيْنهُو ما نَطّ

وَكَعَرْهَا ، سوّا سَواة اللي ضحك به يعني ، وَهَبَا رِجْلَه فوق صَفْحَها، وَذَكّاها قُدّام سُفَانَا .

مَاجْ البيت ورَاج وارْتَفَع الصوت ، لكن أبوهم قال صبركم شُوَيْه ، ذا الحِين تشوفون البسّ الأسود يوم يِحْيِيها ، صَعَق على البسّ في خَاطِره بِ يِسَوّي سَواة الكذاب : حُوتان ، حُوتان ، مِحْيِي الموتان ، لكن ما بَذَاك الوادِي حَدْ، اشْتَاله وهَبَاه فوق رَقَبَة الصَّبِيّة ، ما تغيّر شي ، صَعَق بكل ما يلْقَى : حُوتان ، حُوتان ، مِحْيِي الموتان ، ما بذاك الوادي حَدْ .

السّفَان يوم شَافوا أبوهم على تَا الْحَاله قالوا أبونا غِزِل الله المستعان ، وهم يقُومُون عليه ويِكَتّفُونَه بَعُمَامَته ، ويِدْعُوْن الجماعة يِحَاوِشُونَهم بَ أمّهُم ، وها ذي رَوِيّتِي والسلام .

البنت السُّعْلِيّة

جَاكم واحد(ن) ولا واحد إلا الله ، ومن عليه ذنب(ن) يستغفر الله ، يقولون كان فيه رجّال تِقِي نِقِي ، والله أعْطَاه ، أعْطاه حَلال وبِلاد لكن ما جا له من العيال إلا بنت واحده ، ولا جَت الا مع تَالِيَة من عُمْرَه ، لكن أحواله كأنت طيبه ما عليه خِلاف ، حتى الهمّ يقولون ما يجيه ، ولا قِد عَبَس خَاطِره والا ضاق صدره لا من عدو ولا من صديق ، يقولون وأنا اقول لا إله إلا الله .

لكن الحال مادام إلا لله ، والمومن مبتلى ، أصبح ذاك النهار لاو إِنّ شَي طِلِي من البَهَم ميت ، وفي ظهره بَقْمَه دمْها يسْعى ، ياهو كلْبُو قد هَزْ بَها ونَهَشْهَا ، يا هو ذِيبُو ، لكن منين عَدّا ؟ إن كان كلبُو وإن كان ذِيبُو ، وإن كان غير ما حصل ، منين عَدّا ؟ الحوش مزرَّب ، والزّرْبَة ما فيها مَنْسَم ، الدِّبْرَان بصُغْرَه ما يدخلها فكيف يدخلها الكلب وإلا الذيب.

سَحَب الطِلي وانْزَاه في الخليج كذا عن البيت ، ودَرَج على زرْبة الغنم ، دَرَج عليها من كل مكان ما لِقي فيها منْسَم ، لكنه كلما لقي فيها شي يا بق ما انه يندخل منه سدّه ، آخر شي قال :هذا من الله ، والطلي ذيه مالنا فيه نصيب ، والمعوّض كريم .

راس الدّوْر والا اِنّ الكهلة تِدْعِيه : الْحَق ، نَدَر لاو اِنّ الطلي الثاني مزْقَنْ بَه ، وفي ظهره بَقْمَه كما الاوله ، يا لله العجب ! طيب ، لا جُرّه ، ولا شي مكان يندخل منه على الغنم ، ولا هب بَقْمَة خفّاش ونقول الخفاش، اللهم لك الحمد على كل حال، وسحب الطلي وقَيْسَه ع الخليج اللي جنب البيت.

تَنَشّد الناس ، قريب وغريب ، نَشَد مَرَتَه وسُفَانَه ، حاف وشاف ، ما لقي طاري ، ولا أَطْرَتْها الطواري ، يا عفو الله ، حلالي يصير عليه ما يصير وأنا مِنْسِدحُو في أقصى البيت ؟ وش السّواه ؟ كيف البصيرة يا خواني .

ما بَرَدْ كون الطلي الثاني إلا والثالث عن ساقته راس الدور ، ويلحقه الرابع والخامس في دور واحد ، البقْمَه هي هي ما تغيرت ، والعدو يعدِي ع المراح لا صوت ولا حِسّ ، لا شاه تِهْذِي ، ولا طِلي يصيح ، آمنا بالله العظيم .

طاح المسكين في معجزة ما أكبر منها ، شي لا يصدق ، خمس طليان ذَاحَتْ ما عرف لها سبب ولا سِبّه ، عوّد قال : هم آني باجي من المقطعة ، بأرقُب مراح الغنم من أول الليل إلى أتلاه ، ما عَنّي وعن غريمي هذا لِين ياهبه الله في إيدي هذي .

تواسى له مَكَانو في جنب البيت من وَيْلا المراح ، يشوف منه المراح ، ولا يدرى به مخلوق غير مرته ، مكان ما حد يشوفه ولا يدري به ، وهو نوْمَه نوم ذيب ، ينام بعين والثانية منتبهه ، ينبه من أدنى صوت .

في الليلة الثانية ، بعد ما مضى من الليل نصيفته ، سمع صوت كما لو كان حد معه غصن يسحبه ، رفع ظهره ولمح ولا والله إنها بنته الوحيدة ، تَتْسَلْبَى تَتْسَلْبى ، وقَيْسَهَا عَمَدَتْ المراح ، ندر أبوها من المدسّة ويلْحقها ، هي دخلت المراح ، وهو عَمد ثُعْبَة في جدر المراح ، وشاف منها اللي ما ودّه يكون شافه.

يا وجه الله ، يا وجه الله ، يوم تلَمّح ، شافها عمدت الطلي الأعْوَش ، من أعزّ البَهَم ، وقطّبّتْ ألحْا الطلي ، ووثقتها بأصابعها حتاه لا يهذي ولا

يصيح ، هِمّ غرست نيبانها في ظهره ومصّته ، مصّت دمَه ، مصّت مصّت لِين رَوِيَت .

مات الطلي ورمت به في المراح وخرجت ، مَشَّت الدم من شُدُوقَها ، وتَسَلْبَتْ لين راحت البيت ، أما أبوها فما عاد يدري وش يسوي ، هو في حلم والا في علم ؟ هذي بنته والا جنيّه تصَوْرَت في صورة بنته ؟.

قال : يِلا بِليت يا فصيح لا تصيح و دخل في مسْدَحَه ونام ، من غير صوت أعلى ولا صوت اسفل ، ما وده يرتفع الصوت ، ولا وده يفجع زوجته ، ولا وُدّه بيان للشامتين شي ، حتى الصدقان ما وده يطلعهم على شي .

في الصبح تفاول الرَّجَال ، فكّ الريق ، وبعد الفال علَّم مَرَتَه ، استهالت من كلامه ، قالت وحِدّ الله يا مخلوق ، قل لا إله إلا الله ، قال لا إله إلا الله ، والله ما علمتك إلا بالصحيح ، البنت سُعْلِيّة وهذي قسمة من الله ، قالت : لاحول ولا قوة ، يا لله سترك يا ربي .

قالت المرة : هذي قُدْرَة علينا ، نصيب ومكتوب ، من يوم خِلِقْنَا وانحن نَتْرَقّب يجي لنا مولود ، ويوم جتنا هذي البنت فرحنا بها ونْحَا هِي سُعْلِيّة ، ما معنا إلا الصبر يا وَلْد الحلال وش نسوي ؟ .

قال كيف نصبر يا مخلوقة ؟ صَاحيَة أنت ؟ سُعْلِيّة، تعرفين سُعْلِيّة يعني أيش؟ اليوم تاكل البهم ، وبكرة تاكل الغنم الكِبار ، وبعدها تاكلنا أنا وأنت، ولا كلتنا تعود على الجماعة تاكلهم واحدا واحدا ، هذي لا بد من دفنها حيّه.

صاحت المرَة : نُدْفُنْهَا حيّة ؟ أنا في وجه الله منها ومن ذنبها ، كيف نُدْفُنْهَا حيّة يا مخلوق ، بنتنا ، وحتى لو كأنت بنت غيرنا ، من يجرا ؟ معك قلب يَسْطَى يدْفُنْهَا حيّة ؟ عِرْبِيّة من لَحْم ودَم يا رجال ، اتق الله في عمرك .

قال : أقول سُعْلِيّة تقول عِرْبِيّة ، سُعْلِيّة ، تعرفين يعني ايش سُعْلِيّة ؟ ما معنا يكون ندفنها ، وإلا ابعجها بالسكين و احَدْجِدْ بها للطير وشَبّار الخير ، حرام علينا ندري بها ونخليها تعيش بين الناس ، هذي أذيه للناس ، تحيطين أنت؟

قالت المرة : والله ما تذبحها يكون تذبحني قبلها ، وآهي بكت ، قالت : اذبحها لكن اذبحني قبلها ، احرقها لكن احرقني قبلها ، ادفني أنا وِيَاها في حُفْرَة واحدة ، دخيلك ، قُطْعَتِي بالله وبك ، أنا داخلة عليك دَخَالة الضعيف ع القوي .

قال لا تدْخُلِين عَلَيَّه ولا تَذِّيني بها وتذِّين بها خلق الله ، سُعْلِيّة مالها إلا الذبح ، قالت لك علي اني أربيها ، قال الطبع يغلب التطبع ، وش تربين ؟ سُعْلِيّة ما تتغير ، قالت : ناهَبْ لها لجام حديد ، قال بعد أحسن ! ناهَبْ لها لجام حديد ونقعد في قالوا وقلنا ، فعلوا تركوا .

قالت المرة : بادِلّك لا عَدْ ، ما ودّك تِغْدِي بها عند الفقيه ، يِفْتِش لها ، أما قرا عليها و يشفيها الله ، والا هبا لها مَحْوَه تشربها ، والا دوا تسفّه ، دخيلك افلح بها عند الفقيه كمن الله ياخذ بيدها المسكينة وتطيب .

سَهّمْ شويه ، وقال كمّن الله ، ذا الحين نِغْدِي بها عند الفقيه ، يا لله ، تعالي بها ومشينا ، قامت بتجيب البنت ما لقيت إلا مكانها يفُوْر، دورت يمين شمال ما لقيت لها طاري ، علّمت رجّالها فقام يدوّر معها ، دوروا في العليّة ، دوروا في الجهْوة ، دوروا في السِفْل ما لها الطاري مرّة ، دعوا جيرانهم فقاموا يدورون معهم ، دوروا في الوادي دوروا في الشَّعَابَة ، بَدَوْا من كل رِيْع ، تَشَاوعَوا في كل بير ، ما لِقِيوا البنت ولا سمعوا لها لا حس ولا وَنس .

طاحت عليهم أكبر مصيبة ، ضاعت البنت من بين أيديهم ؟ بدت أمها من فوق البيت ودعت باسمها ، ما حَدْ رد ، وتعوّد ترفع أيدها للسما وتدعي الله : يا رب أنت أعطيت وأنت خلقت وصرفت ، اللهم يا رب إنها وداعتك ، اِيدَك حاضرة وعينك ناظره ، أودعناها وجهك الكريم ونت بنا وبها عليم .

اِثْر البنت سمعت أبوها وهو يقول ب ادفنها ، ب افعل ب اترك ، وزادت جَفِلت ، قالت أهلي دَرَوا إني سُعْلِيّة وعَزَمَوا بذبحي ، مالها إلا أفْقَع من تيه الديرة لديرة ما ينْعَرِف لها طريق ، ولا قد دَرَجَت بهم أقدامهم فيها .

أفْلحت تسعى وتَتْهَبّد من شُعْب في شُعْب ما كنّها إلا مغزولة، يوم قِهِرِت وفَتَرَت أقدامها وقّفت، قعدت فوق هضبة ثمّة، يالله تواطت وآهي عرفت المكان، قالت: آبي نقش من رجلي شوكه فوق الحجر ذَيْه، والله ما عيني أقعد هنيه ب امْشِي قُدَّام ، مشَت مشَت مشَت وإلا أن أرْجولها ماعد تحْمِلها ، قعَدَت فوق هضْبَة همَّه ، يوم تَوَاطَتْ عِرِفِتْ المكان ، قالت : أمي قد مشطتني فوق الهضبة تيه ، والله مالي مقعاد هنا .

صَبرت على التعب ومشَت ، وهي تَصْتَك في حَجَرُو جوف الطريق ، قالت نكّد الله عليك يا ذا الحجر ، ما لقيت إلا المكان ذَيْه تَرْبُض فيه ، قال الحجر ، الا نكّد الله عليك ، ليش ما ترفعيني عن طريقك وعن طريق غيرك ، فرفعت الحجر والا اِنّ تحته ذاك الحُذا ، قال التبسيه يمشي بك .

التَبَسَت الحُذا في رجْلها وهو يمشي بها ، مشى بها وهي ما كنّها تمشي ، مشى بها وفي غمْضه وفتْشه وصلت ديره ما تنعرِف ، لِمِحَتْ لاو اِنّ فيها ذاك الغار ، مِرْتِفِعُو عن بطْن الوادي ،وسُدَّته ويلا الشمس، قالت ما معي بأحسن من ذا الغار.

سَنَّدَت وَيْلا الغار وساع ما وصلت دخلت ، يوم قالت كِذَيْه والا ان هذا الشيبة مِتْمَدِدُو في أقصى الغار، قِرِبتْ مِنِه ، تحققت في وجهه ، عرفت أنه من السّعَالِي ، قالت : عم يا عم . أنتبه السُّعْلِي واسْتَقْعَد ، ماهِلّا شافها ويَبْهَزْ بِيْدَهَا ، يَلْجَغ ويَلْجَغ ، قالت : وش تلْجَغ يا سُعْلِي ؟ الله ياهَب لنا ولك ، أنا سُعْلِيّه كَمَاك .

تحقق منها وقال : العذر من الله ثم منك يا بنتي ، بغيت آكلك إحسبتك عِرْبِيّه ، وين تروحين أنت ؟ ومِن مَن ؟ قالت : أنا يتيمة ماعِرفت أمي ولا أبي ، لكن إن كان ما معك بنات فأنا بنتك ياعم ، قال : ابْرِك الحزّات ، والله إني مِنْقِطِعُو في ذا الغار لا ولد ولا تلد ، ولكن الله جابك .

قال أنا أبْغِيك تِقربين لي عيشتي والله ماعد في جَدِّكْ حبل الحبال ، وأنا أحميك من النصور ، ما يبَذِّي بالسّعَالِيَة يكون النصور ، ينصرم النصر من عنان الْعَرْش هِمّ اخْتَرَج لسان السُّعْلِي والا السُّعْلِيّة من أقصى حلْقه ، قالت البنت : خلاص اتفقنا ، وأنت أبي وأمي بدل أبي وأمي.

راحت أيام وليالي ، وجت أيام وليالي ، نسيت أبوها وأمها ، وعوض الله عليها بهذا السُّعْلِي ، يخاف عليها من الرياح ، وهي تتعيا كيف تقل به ، حتى السّعَالِي عرفوها ، وحبوها ، وهي حَلِيّة لسان مع الكبير والصغير، تاوَى للضعيف ، وترحم اليتيم ، وحلفت ما تذوق لحم عِرْبِي حدّ وهِي حيّه .

في ليلة مطر وبرد وسبرة حِمّ الشيبة، جاه حمى ونَفّاضَة ، انقطع صوته وغاب عن وعيه ، قامت البنت وشبت النار بجنبه ، هبت إيدها فوق جبهته ، ويوم دِفِي السُّعْلِي فَتَشْ عينه ولِمِح فيها ، قال يا بنتي إلى أوّسْتِي كُفَّابِي وأقْدَامِي صامِطِه ، ونَسَمَتِي انطفت ، فاحفري لي حفره وأدفنيني فيها .

مع تلايا الليل أعْطَاها بنفسه ، فقامت البنت من ساعتها وتحفر له ذاك القبر، وتاخذ له من تالي ثيابه كفنُو وتكفنه ، وتشتاله وتاهبه في قاعة الحفره وتهيل عليه التراب ، يوم دفنته جاها غصة وخذتها العبره وآهي تِنْهِشِرْ تبكي فوق قبره ، بكت بكت لين أغرقت تراب القبر بدموعها.

انْجَزَمَتْ على الشيبه ، وكلما توحشت له التَهَمَتَه وَنَدَرَتْ تبكي على قبره ، كأنت تقعد تبكي فوق القبر، تبكي لِين يغْرَق تراب القبر بدموعها ، كل يوم تبكي ، وكل يوم يغرق تراب القبر.

في مِطِيْح الدمع ، أحْقَلَت أَرْكُوضَة فوق القَبْر ، و البنت ماتُوَنِّي ، كل يوم وهي تبكي ، و الأركوضة تشرب من دمعها ، البنت تبكي و الأركوضة تَخَضِرْ وتثمر، ظلت الأَرْكُوضَة مَخَصِّلَة بالثمر ، ويوم استوى الثمر طلع من كل ثمره ذاك السُّعْلِي الصغير وهذي رِوِيَتِي والسلام .

السعلية والرفيقات الثلاث

جاكُم واحد(ن) ولا واحد إلا الله ، ومن عليه ذنب(ن) يستغفر الله ، وإنّه يترافَق ثلاث بنات ويِغْدِيْن للحطب، كل واحدة هَبَت حَوْكَتْهَا فوق جَنْبَها ، وخَذَتْ الهَطَفَة فوق راسَها ، والحَبْل فوق كِتْفَها ، وخَرَجْن من جُهْمَه ع سِبّ الطريق ، لا هب سهل ، ولا هب قريب .

وِصِلْنْ ذِيْك الدِّيرَة لِقِيُوْهَا بَاصِمَه ، عرعر وسمْر ، وطلح ، وسَلَم ، وقرَضْ ، كلّ واحدة أمْلَتْ حَبْلَها حَطَب ، لكن الصغيرة كانت ذِيْبَه ، حُزْمَتْهَا أكبر ، ولُقَاطَها أحسن ، دخل الحسد قلوب رفايقها ، والحسد ما هَب هَيل ، نُجُور بالله من الحسد وأهله ، دَنّت الكبيرة وهبَت في أذن رفيقتها الواسطة كلمتين ما سمعتها الصغيرة .

الشيطان حريص على الشر ، لعنة الله عليه ، وسوس للبنتين ، الكبيرة قالت: بِ نِفْلِح ونخليها ، وهي لا عادت لحالها ما بِ تَلْقى من يشيل عليها الحزمة ، وبتخلي الحزمة وتلحقنا ، وتروح القرية ما معها شي ، قالت الواسطة : لا عد ب نَعَدِّي نِنْتِسِم ، هِمّ لا غَطّها النوم أفلحنا و خلّيْنَاها ، قالت الواسطة : ماعَلَه ، وآهي نَخّارَه أعْرِفْهَا .

مشوا ساعه ، وكل واحدة مِتْشَنِقَة حُزْمَة غَصْبَيْنْ يُقُمْ بَها الحُمار ، وين هي الكبيرة ما قالت: ودكن نِنْتِسِمْ شِوية يا بنات ، قالت الواسطة : إي والله ، أنا تاعِبة وودي أُدْفُقْ عن عيني شوية ، قالت الصغيرة : طيب . كل واحدة حطت عن الثانية ، واعْتَنَزَت على حزمتها ورقدت .

الكبيرة والوسطى تَنَاخَرْنَه ع سِبّ الصغيرة تِدْرِي اِنّهُم رَقَدُوا ، والصغيرة مسكينة غَمّضَتْ عينها وغلبها النوم، يوم ظَلا نِخِيرَها يَتْقَطّع قِمْن المِلَعّنَات

وخَلَيْنَها راقِدة ، مِعْتِنِزَة عَلَى حُزْمَتْهَا وما تَسْمَع اِلّا نَسَمَتْهَا مسكينة ، ورفايقها كل واحدة شّلت على الثانية ومَشَيْنَه .

قامت من النوم على توالي نهارها ، مع شمس المِوْتان ، تلفتت يمين شمال ، ما حولها حَدْ، نادت: فلانة ، فلانة، ما بذاك الوادي حَدْ، قالت لنفسها : بنتك يا بي ، والله لَ أشْتَلْ حُزْمتي والحَقْهُنّة ، يِحْسِبْنِي ما أدل الطريق إلا مَعْهُنّه ، خيبهن الله وخيب ممشاهم .

جَتْ بتَرفع حُزمتها ما طاقت فيها ، شافت كهله متعدِّيه من عندها قالت : شِيلِي عَلَيّه يا عمّه ، قالت الكهلة : تشِيل عليك مهمة مِهمة من ورايه ، شوية لاو ان كهله ثانية متعدِّية من جنبها ، قالت : شِيلي عليّه يا عمّة ، قالت الكهلة : تشيل عليك مهمة مهمة من ورايه .

شوية لاو اِنّ كَهْله ثانية متعدِّية من جنبها ، قالت : شِيلي عليّه يا عمّة ، وآهي وقفت الكهلة وجت وَيْلِيْهَا ، قالت : يا بنتي الليل طاح ، حتى لو شِلْت عليك وين بِ تِغْدِين ، غَدْرَاء والله ما تْشُوفِين طَرَفْ إيْدك ، قالت : دخيلك شِلّي عليّه يا عمة وادعي لي وربي بِ يسَفّر دربي إنْ شا الله .

قالت الكهْلة : آقول تَعَوّذِي مِنْ ابليس بِمّه وروحي معي ، والصباح رباح ، قالت البنت : إلا مَدْخَلي عليك شِلّي عليّه ، و ب أفلح وإن شا الله القى خير ، قالت الكهلة : بَهْواك ، هيّا ، لَقِّينِي ظهْرِك أشِلّ عليك ، لَقّتْهِا البنت ظَهْرْها ، وقامت الكهلة تْتْقَحْوَى تشِلّ على البنت الحُزمة .

الكهلة سُعْلِيّة وعينها بالبنت ، ما طراها والله تفكها بعد صادتها ، جت تشل الحُزمة على ظهر البنت وآهي مَرَصَتْ الحَبْل بأظافيرها لِيْن قطعته ، لاو اِنّ حطب البنت نثيره طول ذِيك الوَسِيفَة ، يوم شافت البنت حطبها تنثر انْقَطَع ظهرها مسكينه ، من بعد يلف المنقود ذَيْه كله ؟.

قالت الكهله : والله إنك ضيفتي الليلة ، مير الله يحييك ، امشي ورايه يمه لِيْن نصل البيت ، مشت وراها ويوم تحققت في كُفّانَهَا لاو اِنّ أظافيرها كما الامْحَاش ، تَحَقْقَت في وجهها لاو ان نيبانها تِخْرِع كما نيبان القُرْحَان ، وآهِي قَامَت تتْوَخّرْ في مِشْيَتْهَا لِين لقيت نخله وتتعلق فيها .

يوم تَعَلّقَت في النخلة شافتها السّعْلية وعوّدت عليها ، البنت ما غير شافت السُّعْلِيّة جت عليها من الخوف قالت : يا نخلة أمي وأبي ، تطاولي السحابِ ، ف آوَتْ بها النخلة فارتفعت فوق لين أبعدتها عن السُّعْلِيّة ، لمحت السُّعْلِيّة لاو إنّها بعيده عنها قالت بَ أجيبها بالحيلة .

قالت ميدها : يمه أنا في سِنّ جدتك ، وخطيبي في سِنّ جدك ، والله إنه مسكين، شيبه يَلْجَغ الما ، ما مَعَه الْحَكّاكَة ، وِنْتِي بالله عليك لا مَتَى بِتُقْعُدِين عندك؟ لو قعدتي سنة بِتندرين بعدها ف انْدِرِي ذا الحين أحسن لك ، فكّرَت البنت في كلام السُّعْلِيّة، وشافت ان مندارها من النخلة أخرج .

قالت : يا نَخْلَة أبي وأمي ، هيا انْحِنِي وطُمّي ، يا نَخْلَة أبي وأمي ، هيا انْحِنِي وطُمّي ، وندرت البنت ومشت عن سَاقَة الكهله وهي تقول في نفسها : إلى بِليت يا فصيح لا تصيح ، ب أدَرْبِي راسي ورا ت الكهلة لِين يفْرجها ربي ، لا عاد فوقك من الما قامه ، ف كنّها مية قامه.

وصلت السُّعْلِيّة بيتها ووصلت معها البنت ، ولا هِلّا وصلت وتُتُلّها بقوه ، وتقحمها في العليّة ، وصكت الباب عليها ، وبدت عليها من ثُعْبَه في جُدار العلية وقالت : القَسْبة عندك ، واللُبَاب عندك ، والزبيب عندك ، كُلِي لِين تشبعين ، لكن مِخْرَاجِك من العليّة حرام يكون بَ أمري أنا .

دَرَجَتْ البنت في العِلّيَة لاو اِنّها كما قالت ، فيها خَصَفَة قسبة ، وخَصَفَة لُبَاب ، وخَصَفَة زبيب ، بعد ذِبْ تِدَرَّجْ بين الخُصَاف لاو اِنّ مَعَها

حَرَكه ، تحَسْسَت ، وتحققت ، لاو اِنّ ذِيك البَسّة راسها كِنّه رُمّة غَزْل ، فرحت البنت بالبسة ، وظَنّتِي حتى البسة فرحت بالبنت .

كانت البنت طاوِيَه وتاعِبه مما لحِقْهَا حَدّ النهار ، ولا هِلّا وِصِلَتْ طَرَف العيشة وركّبت تاكل ، كِلَتْ من قَسْبَة وادي تُرُبَه ، ومِنْ زبيب وادي فِيْق ، ومن لَوْزْ وادي الصّدَرْ، ويوم شِبعَت شِرِبَت مِن الما لِيْن رِوِيَتْ ، ثم تُوَسّدَتْ ذِرَاعَها وَخَذَتْ البسّة في حِثْلَها وَرَقَدَتْ هِي وِيَاهَا.

ما انتبَهَت في الصُّبْح إلا مِنْ الزّعَام ، زِعَام يِنْسِمِع من سَدّ باب العِلِيّة ، تَحَسْسَت لاو اِنّه بين السُّعْلِيّة وقَحْمَها ، القَحْم يقول : وشْ تَ الحِكْمَة جِيْتِي بِها ، تَصْتَادِيْن البنت وتُصُكّين عليها في العِلِيّة ، عند اللُّبَاب والزبيب و نعايم ربي ، أنت في عقلِك أنت ؟ قالت : أنا في عَقْلِي ، وآخاف اِنك أنت مَنْتَبْ في عقلك ، هَوّة يا شَيْبَتْهِم ما دَرَيْت اِنّها ذَبِيْحَة العِيْد ، ما تَدْرِي اِنِي اِبْغِي اسَمِنّها للعيد يا مَشْدُوق ؟

بَانْ الضّاع ذَ الحِين ، ودَرَت البنت أِنّ السُّعْلِيّة عَازِمة عَلَيْها ، بِ تَذْبَحْهَا وتَصْلَخْهَا وتُطْبُخْهَا نهار العيد ، نهار العيد ، الناس في عيد وَمْعَايَدَه وهي تِطَبّخْ فَوْق القَبَسْ ، يَلْتَفُّون عَلَيْها كُلُهم ، السُّعلي والسُّعْلِيّة وسُفَانهم وأرْحَامْهِم وعِيَال أرحامهم ، لكن البنت كانت ذِيْبَه ، قالت اليوم ناكل من نعايم ربي تَيْه ، والتوالي لها والي .

السُّعْلِيّة مادرت أن البنت سمعت زِعَامَها مَعَ شَيْبَتْها ، ودَرَت بكل شي ، وقعدت تمُرّ عليها كل ليلة ، تسلم على البنت ، وإذا سلمت قالت اخرجي لي ايدك يمه ، والبنت صَقْرَه ، كانت تخْرِج إيْد البسّة ، وغَدْرَاء ، السُّعْلِيّة تِحْسِبْها إيْد البنت و كلما شافتها ضعيفه أهْتَمّت واغْتَمّت ، وقالت : كُلِي يا بنتي ، وشْ تَ الحالة صَدَق الأول ذا قال : المِصَيّرّ مَغَيّر !

يوم جَتْ لَيْلَة العيد سمعت البنت الزِّعَام بين السُّعْلِيّة وشيبتها، هو يقول: خلاص اذْبَحِيها، سُمُنَتْ والا ما سُمُنَتْ، اذْبَحِيها وكان ، والسُّعْلِيّة تقول : كيف اذْبَحْها ، لا فِيها لحَمْه سِمِيْنَه ولا مَرَقَه دِهِيْنَه ، اِنْ طِعْتَانِي خَلَيْنَاها للعيد الثاني ، خَلّهَا تُسْمُن على سَعَتْهَا ، وتَعَوّذْ مِنْ العَجلَة ، آي الْعَجلَة ماتِصِيْد الحْجًلَة .

بَغَتْ السُّعْلِيّة فِي شَيْبَتْهَا يُوَخِّرْ ذَبْح البنت لِين تُسْمُنْ وآبَى ، شَيْبَتْها أَمْحَقْ ، ورَاسَه أقْسَى من صُمَيْد الحنّان، قال: والله والله لما ذَبَحْتِيها بُكْرَة لَ أطْلع أفُكّ باب العِلِيَه واخَلِيْهَا تَهُجّ ، ما مِعِكْ رُكْحْ ، الرُّكْحْ ماشِي ، لامَتَى وِنْتِي تِحْشِيْنَها يُمَّه ؟ قالت السّعْلِيّة خَلاص ، نَذْبَحْهَا بُكْرَه ، قال السّعْلِي : قبْل دَرْجَة العيد والا بعدها ؟ قالت: لا ، أدْرُجْ هِمّ لا جِيْت ذَبَحْنَاها .

أصْبَح الصُّبْح ما دَّبْ النّوْم عين البنت ، ولا هَجَعَت ، ولا ذَاقَت النوم ، حَدّ الليل وهي تَفَكِر، كما ايش الذّبْح؟ يُوْجِع والا ما يُوْجِع؟ بَ أموت قَوَام والا بَ اقْعُدْ أنازِع، ب تُوْجِعْنِي أظافيرهم ؟ ب تُوْجِعْنِي سنونهم؟ لكن الصّقْرَة صَقْرَه، قالت: والله ماخَلِّيْهَا تَذْبَحْنِي لو كان معها ستين سُعْلِيّة .

فَتَحَت السُّعْلِيّة الدّرْب ، دَرْب العِليّة ، يوم طاحَت عَيْنَها على البنت لاو اِنَّهَا ما هِبْ على ظَنّهَا، البنت بِتِنْفِرِتْ مِن النَعْمَة ، فيها عافية ما هِبْ في مَخْلوق ، من نعايم ربي ذِيْك ذا تِتْلَقَمْهَا طُوْل الزّمَان ، ما هِلّا شافتها وهي تَشْهَقْ : الدّفْع بِي عَنْك يِمّه ! وشْ ذَا الزّيْن وِشْ ذا العافية ؟ يا نَشْعَتِي نَشْعَتَاه !

قالت البنت مَيْدْ السُّعْلِيّة: وينهم سُفَانِكْ يا عَمّة ؟ وَيْن هُو شَيْبِتِكْ ؟ قالت : أنا ما مِعِي ولا سُفَان لكن الله رَزَقْنِي بِك ، وأما عمّك ف نَحَا هُو ذِبْ يَتْلَبَّسْ ثَوْب العيد ب يُخْرُج يُدْرُج مع الجماعة ، ما ودِّك تِجِين مِعِي نِزَيّن الخُبْزَة ؟ خُبْزَة العِيْد ، قالت البنت : طَيّبْ ، ابْشِرِي .

نَدَرَتْ بَهَا السُّعْلية لِين وِصِلِتْ عند مشَبّ الخُبزة ، قالت البنت : خليني أحَاوِشْك يا عَمّة، والله ما يِطرُّوْن إلا خُبْزِتِك تَا السنة ، ولو كانت أمِّي هِنَيْه والله لِتْظلِي خُبْزِتِك تشُوق ، قالت : ع سِب أيشْ ؟ وِشْ بِتْسَوِّي أمك ؟ قالت : أمي تِسَوِّي عِلْم(ن) ما يَنْقَدَر عليه ، لكن خُبْزَتْها مَطرِيَّة.

أدَّلَجَتْ بَقْعِا بالسُّعْلِيّة ، وآبت تِصْبِر ، ودّها تِعْرِفْ وِشْ كانت تزَيّن أمها ، قالت: وِشْ كانت تزَيّن أمك يا تَيْه ؟ قالت البنت : أمي كانت يِلا حِمِيَتْ الصّلاة تِدْهِنْها ب دِيُوْسَهِا ، قالت السُّعْلِيّة: ما هِلّا ؟ سَهْلَه تَيْه ، هِهْ ، نَحَانِي حَتّى أنا أقْدِر ، وأخْرَجَتْ دِيُوْسَها وانْحَنَتْ فوق الصَّلاة.

ما امْدَى السُّعْلِيّة تِنْحَنِي فوق صَلاة الخُبْزَة الا والبنت يوم نَقَزَتْ في الهوا وتَرْمَحْ السُّعْلِيّة بِ رِجْلَهَا وَسْطْ ظَهْرَهَا ، والسُّعْلِيّة تَدَهْشَرَتْ وطاحت في الدّخْسِيس وسْط المشَبّ ، وتَطْلَع البنت فوق ظَهْرَها وتُبْرُك فَوْقَها ، والسُّعْلِيّة تِصِيح : فُكّينِي ولك ما جَنْب العَابِر ، فُكّينِي ولِك ما تحت الرّحَاة ، فُكِّينِي ولِك ما في السِّفِل.

البنت مِسْتِقِرّة مكانها فوق ظهر السُّعْلِيّة ، تِتْسَمّع في السُّعْلِيّة ولا تُرُدّ عليها ، ما نَدَرَتْ مِن فَوْقَها لِين طِلِعِتْ رُوْحَها ، والله وتْقُوْم عليها وتَسْحَبْهَا ، سَحَبَتْهَا لِيْن أوْصَلَتْهَا فِرَاشَها، هَبَتْهَا فوق المِسْدَح، وجَلّتْهَا بَ الجَوْدَرِي، يوم جَلّتْها قالت: ارْقُدِي مِرْقَادْ جَدّتِي ، لا بِعثْتِي ولا بِعِثْ شَيْبَتِك بَعَدْ .

جاء السُّعْلِي يسحّب ثيابه ، يحُوف ويشُوف ، لِقِي البنت عند المشَبّ ، قال في نفسه هذي ذبيحتنا ، يا نَشْعَتِي نَشْعَتَاه ، يا ما فيها من شَحْم ، وآهُو سَمّا يُدْرُج حواليها شُوَيْه ، قال فين عمتك يا بنت ، قالت : عمَتي تاعِبة وطِلِعَتْ تُدْفُقْ عن عينها شُوَيْة، قال: والخُبْزَة من بِ يِزَيّنْهَا ؟ قالت أنا، قِدْ زَيّنْت المشَبّ وبَعَدْ اطْلَع أطحن.

قال السُّعْلِي : تعْرِفِين تَطْحَنِين بالرّحَاة ، قالت اعْرِف ، لكن ليت آبِي عندنا ، قال السُّعْلِي : آبوك ؟ وليش آبوك عاد ؟ قالت : أبي يُحُوق الرّحَاة بِلِحْيَتَه ع سِبّ يِظَلّي طحينها طحين ، قال السُّعْلِي : حتى أنا ، أقدر احُوق الرّحَاة بلحيتي ، أوَرّيك ؟.

انْحَنَى السُّعْلِي فوق الرَّحَاة في ظَنَّه ب يواسي سَواة أبوها ، يحُوق الرَّحَاة بلحيته ، لكن ما أمداه يِهْوِي بُعُمْره فوق الرَّحَاة لِين نَقَزَت البنت نَقْزَه في الهوا ، وهِي تَرْمَحه فوق شَواكِله ، يوم شافت القحم تَدَهْشَرْ وطاح ، وهي تُنُطّ فوق ظهره، وتُغُطّ الشيبة ، وتِدْرِج الرَّحَاة .

قال السُّعْلِي يوم اَوّسْ الموت : فُكِّينِي ولِك ما جَنْب العَابِر، فُكِّينِي ولك ما تحت الرَّحَاة ، فُكِّينِي ولِك ما في السِّفِل ، لكن البنت ما طَرَاها تُفُكّ عَنَه ، قعدت بارِكَة فَوقه لِين شَافَت بَيَاض عُيُوْنَه ، ويوم مات وهِي تَسْحَبَه لا عِنْد فِرَاشَه ، وتَلَبّسَه بَ الجَوْدِرِي وتْرُوْح وِتْخَلّيْه .

بَغَتْ تُخْرُج من البيت وافْتَكَرَت كلام السُّعْلِيّة وشيبتها ، قالت والله ما أخْرُج لِين آشُوف ، وشْ جَنْب العَابِر ، وشْ تحت الرّحَاة ، وشْ في السُّفُول ، يوم جت للعابِر ما لقيت فيه إلا مُشَاع السُّعْلِيّة ، يوم جت للعَابِر ما لِقِيَت تَحْتَه إلا دَحْوَة حب ، يوم فتحت باب السِّفِل ودخلت ، وآهو وقف شعر راسها .

السّفْل غَدْرَاء ومُوْحِشْ ، الْتَفَتَتْ لِقِيَتْ قَازة وقَدَّاحَة ، ولَّعَتْهَا ، يوم بان السّفِل لاو اِنّ خَشَبَه أسود ، وجُدْرَانه سوداء ، وعِشِشِة العناكب من كل مكان ، والرُّفَة مَنَثّرَة في الحِدَاد، تَقَدّمَتْ، ويوم دخلت أقصى السّفِل لاو اِنّ ذَوْلاك الناس مَعَلَقِين ، الّلِي مَعَلَق بِرِجْلِه واللي بِيْدِه ، وكلهم أحيا ، فكّتْهِم واحدا واحدا وخرجوا كلهم من بيت السُّعْلِيّة وهذِي رِوِيَتِي والسّلام .

جَمْ بِحْ ، جَمْ بِحْ ، جَلا ، جِلْ

يقولون: كان في أوّل الزمان شي أِنْثَى حُرّه ، وصَقْرَه ، صبيّة ما يمْثلَها حَدْ لا في قَرْيَتْها ولا في القَرَايا الثانية ، لكن فِيْها عَيْب واحِدْ وسبْحان من لا عيب له ، لا عادت تَتْهَرّج ما تِعْرِف تِتْهرّج بَرْوَيْد ، لا هَيا ترْفَع صوتها ويسمعها البعيد والقريب ، ياما نَصَحَوها ، أبوها وخطيبها واخوانها وأمها وأخواتها وخالاتها ، قالوا : يا مخلوقة تهرجي برويد ونسمعك ما عليك .

ذاك النهار، كانت رَيْحَه بِقِرْبَتْها، كانت تستقي من البير، هي ورفايقها ، قالت: اسْمَعْن يا ذُنّه ، الليلة موعدنا لا تَنْسَيْننَه ، ودّنا نُحْزب تلايا الليل ، الطريق ما هو بسهل ولا هو بقريب ، نبْغِي نِمْشِي حَدّ وشَي بُراد ، لا بدَت الشّمس ما عَدْ معنا مَغْدَا ، قُلن رفايقها طيب .

كلام الصَّبِيّة تَيْه ما وقّع إلا في أِذْن السُّعْلِية ، السّعْلِية اِثْرَهَا كانت باطِحة دِرْق عُثْرْبة ثَمّ ، ما شافوها ، لكن عِلْمِهِم كُلَّه وِصِلْهَا بالقَّدّ والتفصيل ، ضِحِكِتْ السُّعْلِيّة بينها وبين نفسها ، وقالت : يا صيد الصيد ، كم لي أدور لها تا الصَّبِيّة واليوم قرِب الخَلاص ، بُكره والا بعْد بكره آكل مِنْ كُتُوفَها تِيْاك .

بِنت الرّجال مِنْ ساع وِصِلِت بيتها، طَرَّفَتْ الحَبْل والْهَطَفَة والحَوْكَة ، وجَبّرَتْ عشا عِيالها ، ثُم صلّت ونامت ، أما السُّعْلِيّة الخايية فإنها خَذَت لِين تَنَاصَف الليل وقيسها على بيت الصَّبِيّة ، وَقَفَت في السّاحَة ، هُمّ قِرِبتْ مِنْ الخَلْف وُوَينَها ما أذّنَتْ على صِفِة أذان الديك، وقعَدَت تُوَذِّنْ مِنْ عِنْد الخَلْف لِين دَرَتْ اِنّ الصَّبِيّة الطيّبة نِبهَتْ.

السُّعْلِيّة تَقَدّمَتْ وَيْلا البَاب ، ويوْم قِرِبتْ دَقّتْ الباب ، الصَّبِيّة يوم سِمِعتْ الدّقّ قالت: مَنْ؟ فِإنّ السُّعْلِيّة الخَايِيَة تَاهَبْ صَوْتَهَا على صِفِة صَوْت

رفِيقَة الصَّبِيّة : هيا قومي يا صِدِيْقْتِي ، الديك أذّنْ ، والنّهَار طِلع ، خُذِي حَبْلِك وظِلالتِك ويالله ، قالت الصَّبِيّة الحُرَّة : طيب طيب ، جِيتِكْ .

قالت الصَّبِيّة الدَّنْدُوْنَة تُلُوم نفْسْهَا ، يا خَجَلِي خَجَلاه ، أنا الّلِي دايم أَقِيْم النّاس ينشّون يِدَوْرِوْن رِزْقهُم ، واليوم بَغَيت أرْقُدْ عَنْ شُغْلِي ، لو ماهِيْب رِفِيْقِتِي تَيْه كان رَقَدْت، قامَت لفّت حَبْلَها والتَبَسَتْ حَوْكَتْهَا فوق جَنْبَهَا ومَظَلّتْهَا فوق راسَها وخَرَجَت ، لاحَت الدّرْب ورَاها والحَجَته ومَشَتْ وِيْلا رفِيقتها .

ما عِرِفِتْهَا ولا دَرَت أنّها السُّعْلِيّة ، ع سِبّ الغَدْرَاء ما حَدْ يشُوف طَرَفْ إيْده ، لكن يوم مَدّت إيْدهَا تصَافِحْها كِنّها إيْد رَجّال، اِيدَها حَرْشَاء ما هَبْ كما إيْد رَفِيقْتَها ، لكنها مَشَت مَعَها ، ويوم الْتَفَتَتْ فيها تحت سَدَف نُور النجوم لاو اِنّها سُعْلِيّة ما تخَاطِيَها العين .

الصَّبِيّة دَخَلْهَا الخَوف وخِرِعَتْ ، لكنّها صَبَرَتْ ع سِبّ ما يِبَان عَلَيها شيء ، دَرَت اِنها راحَت في خَرَايِطْهَا والسُّعْلِيّة عازِمَة تُفُكّ الرّيْقْ عَليها هذا النهار ، ولا بِ يِخْرِجْها مِنْ نَشَاْيِبْ السُّعْلِيّة غير الحيلة ، والحيلة ما بِ تِجِي إلا مِنْ نَفْس(ن) راضيه ، لا بِدّ مِنْ الصّبْر والرّضَى .

مَشَيْن الثِنْتَين ، وَحْده جنْب الثانية ، لِين قلنْ سَلام يا دِيرَة الحطب ، الصَّبِيّة الطيبة تَيْه عازِمة على الفَكَاك من السُّعْلِيّة ، والسُّعْلِيّة عازِمه تُفْرُثْها وتَاكُلها ، يوم وِصِلْنِه دِيْرَة الحطب ، قالت الصَّبِيّة بنت الأجواد وصِلْنَا تَوّا ، قالت السُّعْلِيّة : صَادِقِة يُخْته ، والحقيقة ان السُّعْلِيّة هي السبب ، هي اللي زَعْزَعَتْها توّا.

قالت الصَّبِيّة النشمية للسُّعلية تَزْعَمْ اِنّها ما بَعَد عِرِفِتْها: وِصِلنا تَوّا يَخْتَه ، ما وِدّك نُقْعُد نِجَمْبِحْ لِيْن يَطْلَع النهار، و يِنْشَاف الشّار من الجَار؟ قالت

السُّعْلِيّة من جِدّك يَخْتَه ؟ قالت : مِنْ جِدّي ، قالت السُّعْلِيّة : طَيّب ، نِجَمْبِحْ ، نِجَمْبِحْ ، كم لِي ما جَمْبَحْت .

السُّعْلِيّة قالت في نفسها: خَلّنا نجمبح أرَبّها تَقْهَر وتُفْتُر عُظَامَها ، وِلا قِهِرتْ وَفتَرَتْ عُظامَها خَطَفْتُوها، ما تِقْدِرْ تُفُتّ البَعْرَة الحَوْلِيّة ، وَغدَتْ تَسْعَى وَتَقَعْفَصَتْ وِدَّهَا بالْجَمْبَحَه ، أمّا بنت الأجاويد فَلا ، قَعَدَتْ تَعَلِمّها بالْجَمْبَحَه وسَنْعَها ، مِنَينِه لا وَيْنِه ، لجْل اِنّ مَعْهَا حِكْمَة ، ما هَبْ سَهْلَة .

قالت الصَّبِيّة للسُّعْلِيّة اسْمِعِي يَخْتَه: كُلّ وَحْده مِنّا تِثْنِي رُكُبْهَا وتُقْعُدْ عَلى رُوْس أصَابِعْهَا ، متْقَابِلِين بالظُّهور، ونجَمْبِحْ ، أوّل مَرّة ناخُذ ثَلاث مَحَارِيْف فِي المِفْلاح ثُمّ نُعُلّهَا فِي المِعْوَاد ، والمرّة الثانية ناخُذْ سَبْعَة مَحَارِيف فِي المِفْلاح ثُمّ نُعُلّها فِي المِعْوَاد ، والمرَّة الثالثة ناخُذ أحْدَعْشَرْ مِحْرَاف فِي المِفْلاح ثُمّ نُعُلّها في المِعْوَاد ، لِين يَطْلَع النّهار وِالا وَحْدَه مِنّا تُقُول قِيْقْ .

الصَّبِيّة وِدّها يِظَلِي بينها وبين السُّعْلِيّة مِدْوَه طويلة تعِيْنَها عَلَى المِشْرَاد ، والسُّعْلِيّة وِدّها تِظلِي الصَّبِيّة فَاتِرِة ضِعِيفَة ، أَرَبَّهَا تنْهدّ عليها وتفْتِرْسها ما تطِيق تُردّها عن نفْسَها ، في ظنّها بِ تعشّي عيالها الليلة عليها .

سَمَّيْنَه يَلْعَبْنَه ، كل وحدة ثنّت رُكُبْهَا ، وقَعَدَتْ على رُوْس أصَابِعْهَا ، ظهر الصَّبِيّة في ظهر السُّعْلِيّة ، ويالله ، نَقْزْ على رُوْسْ الأصَابِع ، كلّ وحْدَة مِفْلاحَهَا فِي جِهَه : جَمْ بِحْ جَمْ بِحْ جَلاجِلْ ، مِنْ مُهْرَةٍ تِعَاجِلْ ، تَرْعَى جِمِيْمٍ بَاجِلْ، وجَا المِعْواد ، كُل وحْدَة تعوّد لِيْت الثانية وتُعُلّ المحاريف الثلاثة : جَمْ بِحْ جَمْ بِحْ جَلاجِلْ ، من مهرة تعاجل ، ترعى جميم باجل.

الْتَقَيْن الوجه بالوجه ، قالت السُّعْلِيّة في قلبها : يا لَهَفِي على تَامِعِك الّلُحْمَان والشُّحْمَان ، وقالت الصَّبِيّة في نفسها : الله يُحُدّك ويِصْرِفِكْ عَنّي وَعَنْ عِيَالِي ، ثم اسْتَدَارَتْ كُلّ وَحْدَه مَكَانَها لِين صار الظهْر بالظهْر ، وآهُنَّة

سَمِيْنة من جديد ، لكن المرّة هذي أطول ، فيها سبْع محاريف: جَمْ بِخْ جَمْ بِخْ جَلاجِلْ ، مِنْ مُهْرَةٍ تِعَاجِلْ ، تَرْعَى جِمِيْمٍ بَاجِلْ، أَخْوَالِي الْعَطِيّة ، ذَبّاحَة الطّلّيّة ، وَكَلْبَهِمْ فِي الوَادِي ، يِطَارِدْ الحَدَادِي، هذا في المفلاح .

في المِعْوَاد يعودوا بالمحاريف السبعة نفسها ، ذيك ذا افلحوا بها يعودوا بها : جَمْ بِخْ جَمْ بِخْ جَلاجِلْ ، مِنْ مُهْرَةٍ تِعَاجِلْ ، تَرْعَى جِمِيْمٍ بَاجِلْ، أَخْوَالِي الْعَطِيّة ، ذَبّاحَة الطّلّيّة ، وَكَلْبَهِمْ فِي الوَادِي ، يِطَارِدْ الحَدَادِي، التقين الوجه بالوجه ، قالت السُّعْلِيّة في قلبها ، يا لَهَفِي على تَامِعِك الّلُحْمَان والشُّحْمَان ، وقالت الصَّبِيّة في نفسها ، الله يُحُدِّك ويِصْرِفِكْ عَنّي وَعَنْ عِيَالِي .

ثم اسْتَدَرْنَه لِين عَاد الظهر في الظهر ، وابْتَدَيْن في أُمّ أحْد عْشَر مِحْراف : جَمْ بِخْ جَمْ بِخْ جَلاجِلْ ، مِنْ مُهْرَةٍ تِعَاجِلْ ، تَرْعَى جِمِيْمٍ بَاجِلْ، أَخْوَالِي الْعَطِيّة ، ذَبّاحَة الطّلّيّة ، وَكَلْبَهِمْ فِي الوَادِي ، يِطَارِدْ الحَدَادِي ، ، يَا خَجَلِي مِنْ اِمّي ، ومِنْ بَنَاتْ عَمّي ، نَثّرْتْ كُحْلَهِنَّه ، عَلَى خُدُودِهِنّه .

المِفْلاح طَال ع سِبّ فيها أحْد عْشَر مِحْرَاف، جا المِعْوَاد، عَوّدْنَه بِ أحْد عْشَر مِحْرَاف، اللّيِي أفْلَحَوا بَهَا عَوّدَوا بَهَا: جَمْ بِخْ جَمْ بِخْ جَلاجِلْ ، مِنْ مُهْرَةٍ تِعَاجِلْ ، تَرْعَى جِمِيْمٍ بَاجِلْ ، أَخْوَالِي الْعَطِيّة ، ذَبّاحَة الطّلّيّة ، وَكَلْبَهِمْ فِي الوَادِي ، يِطَارِدْ الحَدَادِي، ، يَا خَجَلِي مِنْ اِمّي ، ومِنْ بَنَاتْ عَمّي ، نَثّرْتْ كُحْلَهِنَّه ، عَلَى خُدُودِهِنّه .

الْتَقَت الصَّبِيّة و السُّعْلِيّة الوجه بالوجه ، قالت السُّعْلِيّة في قلبها ، يا لَهَفِي على تَامِعِك اللُّحْمَان والشُّحْمَان ، وقالت الصَّبِيّة في نفسها ، الله يُحُدِّك ويِصْرِفِكْ عَنّي وَعَنْ عِيَالِي . واسْتَدْرَجْنَه لِين عاد الظهر في الظهر و يا لله ، المرّة هذي فيها ارباطعشر مِحْرَاف ويَا معُونَة(ن) بالله .

جَمْ بِحْ جَمْ بِحْ جَلاجِلْ ، مِنْ مُهْرَةٍ تِعَاجِلْ، تَرْعَى جِمِيْمٍ بَاجِلْ، أَخْوَالِي الْعَطِيّة ، ذَبّاحَة الطّلِيّة ، وَكَلْبَهِمْ فِي الوَادِي ، يِطَارِدْ الحَدَادِي ، يَا خَجَلِي مِنْ اِمّي ، ومِنْ بَنَاتْ عَمّي ، نَثّرْتْ كُحْلَهِنَّه ، عَلَى خُدُودِهِنّه ، تُبُّق تُبُّق يَا رِعْيَان ، شَرَيْتْ الدُّفّْ بُحُصَانْ ، وَارْبَعْمِيَه مِنْ الضَّانْ ، يوم وِصِلَتْ الصّبِيّة ذَا الحدّ قالت : اليوم يومِك يا بنت أبوك ، تَفَلّتْ في أيديها وامّسَحَتْ تَسْعَى، استدارت السُّعْلِيّة لاو اِنّ الصَّبِيّة ترْبَع كما الفَرَس ، قالت : وِشْ بِك ، وَيْن غَادِيَة. ؟ قالت : بِ أَرُوْحْ لَ اهْلِي أهْلِي مِطِرُوا .

دَرَتْ السُّعْلِيّة اِنّها شَارِدَه مِنها فالحَقِيها، الطارِد والشارِد، ويوم عادت بَ تلْحَقْها السُّعْلِيّة وتلتفت لاو اِنّ بيت الفقيه ما هو ببعيد ، فاعْمَدِي السِّفْل يوم شافته مفتوح فادْخُلِيه ، دخلت السِّفْل والحَجَتْ الباب من وراها ، والسُّعْلِيّة وصلت عند الباب وتْتخَنْطَل ، يوم تخَنْطَلَتْ طاحت فوق الباب فنشبت سنونها في الباب .

جت السُّعْلِيّة بِ تِخْترِجْ نِيْبَانَها من السُّدة فتناصَلَت في باب السِّفْل ، يوم تناصلت سنونها في الباب عودت تدقّ الباب وتِسَعْلِل مِن سَدَّ الباب : يا غَبْن ضَرْسِي على شَحْمَة اِذْنِك ، ياغَبْن ضَرْسِي على شَحْمَة اِذْنِك ، حَلَفُوا يا نيبانها إنها ناشبة في دَرْب السِّفْل إلى اليوم ، وهذي رِوِيّتِي والسلام .

الخاتمة

هذه النصوص عدا النص الأول هي حكايات متداولة بيت الناس في قرى منطقة الباحة ، يتداولها الكبار فيما بينهم و يرويها الكبار للصغار، وتجري على ألسنة الرعاة والمزارعين والسمّار في ساعات العمل وفي أوقات الراحة في طول المنطقة وعرضها .

أما النص الأول ، نص جبل قاف ، فهو نص سمعته من راو يمني كنت أنصت إلى كثير من حكاياته خلال فترة تقع بين عامي ١٣٨٦هـ و ١٣٩٠ هـ ، ومع أن جبل قاف كان حاضرا في ذاكرة أبناء الباحة إلا أنني لم أجد من بينهم من يتعرف على النص بتفاصيله المنشورة هنا .

وجميع هذه النصوص قد وصلتني عبر رواة من مناطق مختلفة داخل الباحة ، إلا نصوص السيّر الشعبية فهي نصوص قد نقلتها عن أصول مخطوطة ، لم أضف إليها شيئا غير علامات الترقيم ، والسيّر الشعبية هي حكايات يقرأها بعض الفقهاء على سامعيهم المتحلقين حولهم في بيوت ذوي اليسار كما يفعل الحكواتي في مدن الحجاز ومصر والشام .

وبطبيعة الحال فإن هناك حشد من الرواة قد سمعت منهم ، أو قرأت عليهم ما سمعته من غيرهم تحقيقا لنصّه، وهذه هي أسماؤهم :

ربيع بن أحمد بن جميع ، محمد بن صالح بن ربيع ، جريبيع الزهراني ، محمد بن سالم بن خمّي ، عبد الله بن سعيد بن مهدي ، أحمد بن حامد الأعمى ، مطر بن جمعان بن مقبول ، محمد بن جمعان بن مقبول ، علي بن جعير الأيتام ، سعد الحسن ، رجب الفريخ ، مشرف بن عيسان ، محمد بن سعيد دلبخ ، الحاج عبد الله اليماني ، سعيد بن عيضة كوعان ، محمد بن منسي ، سعيد بن علاس ، صالح بن مرزن ، حمدان بن محمد المحي ، حسين بن أحمد القحم،

سعد بن صالح بن ربيع ، ، عبد الله الرباعي ، عبد الله الظفيري ، راشد بن داحش ، علي بنّان ، عبد العزيز المثري، ذياب بن سعيد ، أحمد بن كتّة ، محمد بن سابي رحم الله من مات وأمد في عمر الحيّ منهم ، هذا وبالله التوفيق.

الفهرست